

روايه

لورانس تارديو

وفي النهاية الصمت



ترجمة: بشرى أبو قاسم

لورانس تارديو

وفي النهاية الصمت

ترجمة: بشرى أبو قاسم


وفي النهاية الصمت



Author: **Laurence Tardieu**	اسم المؤلف: لورانس تارديو
Title: **À la fin le silence**	عنوان الكتاب: وفي النهاية الصمت
Translate: **Bouchra ABOU KASSEM**	ترجمة: بشرى أبو قاسم
Cover Designed by: **Majed Al-Majedy**	تصميم الغلاف: ماجد الماجدي
P.C.: **Al-Mada**	الناشر: دار المدى
First Edition: **2017**	الطبعة الأولى: 2017



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

+ 964 (0) 770 2799 999 + 964 (0) 770 8080 800 + 964 (0) 790 1919 290	بغداد: حي ابو نواس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141 Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141 www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 961 706 15017 + 961 175 2616 + 961 175 2617	بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول dar@almada-group.com
+ 963 11 232 2276 + 963 11 232 2275 + 963 11 232 2289	دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار al-madahouse@net.sy ص.ب: 8272

لورانس تارديو

كاتبة فرنسية ولدت في الرابع عشر من كانون الأول ١٩٧٢ في مرسيليا. تعيش الآن في باريس، كرّست نفسها للكتابة بعد أن أنهت دراستها بفرع التجارة. نشرت عشر روايات حصدت أهم الجوائز. كما أنها أمّ لثلاثة أطفال.

الأم والأرض أمان

تهتزّ أرض الوطن بالغدر فيستيقظ الطفل داخلنا بحثاً عن رائحة أمه، عن حضنٍ عهد الوفاء وضمنا في عثراتنا وخوفنا وفشلنا. أتيه في الشوارع بحثاً عن عطر أمي ليلعق الرعب الذي زرعه رصاص الإرهاب غدراً. أين حضنك أمي أحط فيه رأسي المثقل بالذعر، أين صوتك يهدهد لي فألقي الألم في جعبة النسيان. مشاعر اختلط فيها الحنين للطفولة والذعر وعشق الوطن نسجتها لورانس تارديو لتحملنا لزمنٍ يهدد فيه الإرهاب السلام. ذاك الإرهاب الذي لا يعرف حدوداً ولا يعترف بالإنسان. غرابٌ ينعق بالموت الزؤام أينما حل. كيف السبيل لاستعادة إيقاع الحياة الساكن بعد أن نشز فيه الهول والرصاص.

ذكرياتنا وتاريخنا جذورٌ ضربت في أرضنا، في ذاكرتنا. كيف نقتلع جذوراً شبكتنا مع أجدادنا لنزرعها في أرضٍ أخرى، في ذاكرةٍ أخرى؟ هل المجهول يلائم جذورنا أم سنشهد على تلاشيها؟ تساؤلاتٌ نقف حائرين أمامها ترغمنا على التأمل بكنه التاريخ وجوهر الإنسان رغم أولئك الذين يلوون ذراع الإنسانية ويزفون الموت لتكبيل الحريات وزج الحياة خلف قضبان الخوف. ليس الإرهاب سياسةً تبيح للدول التلاعب بالشعوب، بالإنسان الذي توسد حضن الوطن وغفا بأمانه ليصبح اللجوء غايته، وهل يمكن أن

ترادف مفردة اللجوء كلمة الوطن؟ هل ستنبض الحياة في لاجئٍ ترك خلفه الوطن، ترك نفسه في الوطن.

اللجوء... كلمةٌ كثر تداولها. البنت الحرام لعهر الإرهاب والسياسة. كلمة باتت تهددنا مهما خلنا أن شتان ما بيننا، ستدنو على حين غرة وتنتشل الوطن بمخالب مسمومة وتركلك على أرصفة اللجوء الذليلة بانتظار أن يتصدقوا بالوطن البديل، والبديل لن يحل يوماً محل الأصيل وستلعب الريح فينا أبداً، سينخر برد الحنين عظامنا وتشيب أحلامنا التي دهسها الرعب في شوارع الوطن. *حياةٌ بلا أحلام لا معنى لها*.

أمي وأرضي... دثروني بالأمان وأعزفوا على وتر الإنسان. لن ننهار أمام من مسّه جنون القتل، لن يكتم أنفاس الحياة وسنستمر في أحداق صغارنا الذين يهللون للحياة ومثلهم سنتعرى من ثقافة الرعب هذه ونواجه الحياة بقلبٍ صبٍّ...

الأم والأرض والولد... إيقاعٌ أزليّ تتمايل على زنوده خصور الحياة الأبدية وينفخ في قصبات الأمل نغماً يلوي الرعب ويتحدى الأسى.

رحلة تزخم بالعواطف الجياشة سنخوض غمارها في رواية «وفي النهاية الصمت».

بدأت منذ عدة أسابيع كتاباً، وددت أن أكتب عن منزل العائلة، منزل أجدادي المنحدرين من أصول إيطالية. ما الوصف الذي يليق بهذا المنزل أكثر من كونه الملاذ؟ قرر منذ عدة أشهر خَلت أن علينا بيع هذا المنزل فحسب قوله: «لم يعد بوسعنا غير ذلك».

بيع المنزل يعني فقدان مرساتي منذ الطفولة. فقدان أرض جذوري وأرض صوري السعيدة، الأصوات والأجساد والحركات الموجودة دائماً هناك وفي كل مرة أعود لأولئك الذين كنت أحب والذين لم يعودوا هنا.

حين سمعت الجملة من فم والدي؟ أخي؟ فلم أعد أذكر سوى فرقعتها العنيف والصاعق: «سنبيع»، قلت في سرّي دون أن أفهم نفسي كليّاً: سأفقد ذاكرتي.

كما أذكر أيضاً الإحساس المدوّخ بأنني وقعت في حفرة بسرعة هائلة.

لن أنجح، هذا ما كنت أقول في سرّي: لن أنجح إذ انتصب أمامي جدار لا يمكن تجاوزه.

قالت لي عائلتي: «هذه هي الحقيقة، انظري لما هو أمامك... حقّاً لا يمكننا الاحتفاظ بالمنزل». نظرت أمامي وجدت الجدار، رأيت

الجدار وقلت في سرّي إنني أنهار. قررت أن أكتب عن المنزل فكان الشيء الوحيد الذي بوسعي فعله. لعلّي أكسر الحاجز حين أكتب عن المنزل. هل ستتيح لي الكتابة عبور المستحيل؟

كما تأملت حدوث معجزة وهي أن يلاقي الكتاب نجاحاً فأبيع الكثير من النسخ وهكذا أتمكن من شراء المنزل من جديد. أمام جدار من الأحلام المجنونة، حلمت بشيء جنوني.

كنت قد كتبت حوالي ستين صفحة وصفت فيها المنزل وسردت تاريخه. ذكرت جدي وجدتي وحكايتهما كمهاجرين إيطاليين عبرا الحدود الإيطالية وحطّا الرحال في فرنسا يوم زفافهما وما كان بحوزتهما سوى مئة فرانك، وكانت جدتي تبكي سرّاً لئلا تسبب الألم للرجل الذي أحبته. كما ذكرت مشاهد من الطفولة. حتى ولو كان لا بدّ من بيع المنزل فما كتبته سيبقى، سيبقى للأبد. ما كتبته سيضفي وجوداً أبديّاً. إنه الكتاب الوحيد الذي رغبت بكتابته فلم يكن هناك ما يضاهيه أهمية.

وبعد ذلك، جاء يوم الأربعاء السابع من كانون الثاني ليحطم كل شيء في عدة لحظات. كم رغبت أن أصدق أن بوسعي متابعة الكتابة عن المنزل خلال الأيام القادمة.

لزمني عدة أسابيع لأستوعب أن مشروعي عاجز عن مواجهة ما حدث. في الحقيقة، كثيرة هي الأشياء التي ما صمدت، تفتت بعضها إلى الأبد من يوم السابع من كانون الثاني. فقدت حتى الآن شعوري الجليّ بخط التحديد الواضح والكتيم ما بين الداخل والخارج.

بات كل شيء نافذاً منذ السابع من كانون الثاني، ارتشح الانهيار في مسام جلدي. وولج العالم في إهابي.

لم يعد يعنيني فقدان منزلنا في نيس وتاريخه وذاكرتي والكتابة، فقد كل شيء أهميته. إنها المرة الأولى التي يلج فيها انحلال العالم إلى عالمي الداخلي. هذه المرة الأولى التي تفرض فيها الكتابة عن الخارج نفسها مثيرة الفوضى في كتابتي. كيف لي أن أكتب عن منزل طفولتي بعد ما حدث؟

مرَّ يومان على مجزرة شارلي إيبدو. استمرت عملية تطويق القاتلين. في صباح يوم الجمعة تم إلقاء القبض عليهما وانتهى شيء من الذعر حسب ظني.

لم يكن بوسعي التركيز على أيّ شيء آخر منذ الصباح، كنت أتابع مباشرة على الإنترنت، لحظة بلحظة مراحل تقدم التطويق. تسمّرت خلف شاشة حاسوبي. لم تكن عيناي فقط اللتان تقرآن بل جسدي برمته متكئ على الكلمات كما لو أنه هنا في باريس وهناك في الغابة يطارد القاتلين في آنٍ واحد. أخذ المجرمان عمال مطبعة تبعد بضعة أمتار عن مدرسة كرهائن، استعد مستشفى منطقة «مو» لاستقبال أفواج الجرحى. هذا ما يسمى بالخطة البيضاء. لم أكن أعرف هذا التعبير. اكتشفت منذ ثمانٍ وأربعين ساعة أن هناك الكثير والكثير من الأشياء التي ما كنت أعرفها قبل ذلك. سيستمر التطويق لبعض الوقت. شعرت أن أعصابي مشدودة بشكل مؤلم وأصابني تعب مباغت فقررت أن أخلد للراحة. قلت في سرّي بينما كنت أتمدد «لن يحدث شيء ذو أهمية خلال نصف ساعة. ما إن أغمضت عيني حتى رج جوالي وكان ج. ظننت أنه يكلمني ليسألني إن كنت على علم بالأحداث الأخيرة وإن كان كل شيء على ما يرام بالنسبة لي والجنين. «لا تتحركي خارج

المنزل». هذا ما سمعته قبل أن أنبس بكلمة، «هناك رمي رصاص واحتجاز رهائن على مقربة مني في فانسن لا تتحركي!».

ما زلت أذكر اللحظات البسيطة التي لزمتني لأستوعب ما كان يقول. انتصبت فوراً وبدأت بالصراخ: «يا إلهي! الأمر مستمر، ما انتهى بعد!» كانت هذه الكلمات الوحيدة التي توصلت للفظها دفعة واحدة بينما أخبرني صوت ج. الصارم: «هدئي من روعك، أنا في أورساي، لديّ موعد خلال دقيقة. لا يمكنني أن أكلمك لوقت أطول. وددت أن أحذرك، لا تخطي خارج المنزل. إننا نتابع الأحداث مباشرة، سأتصل بك ما إن تسنح الفرصة».

ما زلت أذكر تماماً الإحساس الذي انتاب جسدي برمته ينذرني بأن المصيبة حلت ولن يكون لها نهاية.

منذ يومين يوم الأربعاء الواقع في السابع من كانون الثاني، عدت مع ابنتي الصغرى من درس التنس ككل يوم أربعاء. مشينا من باب ليلاس ثم استقلينا الحافلة ثم نزلنا في ساحة أوغست ميتيفيه أسفل المبنى حيث أقيم. وككل يوم أربعاء منذ أن بدأت بانتظار مولودي وسألت ج. قبل أن أسألها إن كانت ترغب بشراء الخبز من المخبز بينما أعود بسلام للمنزل. فرحت جدّاً وقالت نعم فهي تحب أن تذهب وحدها لتشتري خبز السومول الذي كنت أنا وابنتي مولعتين به.

صعدت بضعة الأمتار التي تفصلني عن المبنى سابحة بخيالاتي. كان يوم أربعاء كسائر الأيام، لم يكن لدينا موعد سنتناول غداءنا بهدوء أنا و ج. ثم عادت ابنتي الكبرى وجلست إلى المائدة معها وهي تتناول غداءها بدورها. كنا نتحدث عن أشياء وأخرى ثم بدأت تكتب وظائفها قبل أن تذهب لدرس الرقص. تمددت قليلاً قبل أن أذهب مع ج. إلى بانوليه.

أذكر أن الضباب غطى المدينة مع مطلع الصباح والسماء منخفضة وثقيلة. بدأت بتحضير الطعام وكانت الساعة ١١:٣٠. رنت ج. الجرس، فتحت الباب فناولتني خبز السومول بابتسامة عريضة ثم غيرت ملابسها. في هذه اللحظة بالذات بدأت أسمع صفارات الإنذار تعوي مراراً وتكراراً أمام النوافذ. كان عرضاً دون نهاية.

جلست أنا و ج. إلى المائدة.

استمرت الصفارات.

نهضت لعلّي أرى شيئاً ما من شرفة منزلنا الصغيرة، يسود الهدوء كل شيء. قلت ل ج.: «لعله حريق هائل على مقربة من هنا. ربما مبنى. لكنني لا أرى في السماء أي دخان».

أكملنا تناول غدائنا.

ما زالت النوافذ تحمل دوي صفارات الإنذار. نهضت مجدداً لعلّي أقرأ على الإنترنت خبراً عن حريق هائل في الدائرة العشرين أو الواحدة والعشرين. دون جدوى. أنهينا غداءنا وككل يوم أربعاء، تناولت ج. البوظة من الثلاجة وحضرت لنفسي القهوة.

منع الضباب الكثيف أيّ شعاع للشمس من ولوج شقتي المضيئة عادة. جلست مقابل حاسوبي، أمام النوافذ حيث تلوح الأشجار العارية. ج. تتناول البوظة، تتلذذ بها ببطء دائماً لتنتهي بشوارب من الفانيليا والشوكولا. عزفت على الفيس بوك.

هنا أدركت دفعة واحدة. عشر رسائل متتالية. نظرت إلى ساعة يدي أوتوماتيكيّاً. إنها الثانية عشرة ظهراً وعشر دقائق. تمزق كل شيء أمام عيني وتحت أقدامي.

أعرف كل زاوية وكل صوت وكل رائحة. احتكاك باب الدخول بالأرض ما إن يبدأ الطقس الحار ورائحة الهواء العفن الطفيفة على الأدراج في الشتاء. صرير مصاريع النوافذ الدوارة في الغرفة الثانية بالأسفل والتي لطالما أطلق عليها اسم «الغرفة الزرقاء» حتى قاموا بتبديل غطاء السرير لكنني بقيت أسمّيها هكذا حتى لم يعد أحد يفهمني: «آه! تقصدين الغرفة المتوسطة؟» كما أعرف رائحة سلة البحر الواخزة والقوية في غرفة الاستقبال في الطابق العلوي، والمأخذ الكهربائي في الغرفة الأخيرة الذي ومنذ تركيبه يعمل مرة ويقف أخرى، وهكذا نظن أننا وصلنا قاتل البعوض ولدى عودتنا بعد ساعتين، نكتشف أنه بارد وأن عشر بعوضات تنتظرنا بفارغ الصبر على الجدران البيض. أما باب الممر في الطابق العلوي الذي يفتح بصرير طويل مع أقل هبوب ريح ليصفق صفقاً خفيفاً ويفتح من جديد. كم ارتقيت السلم الرخامي ذي الاثنتين والعشرين درجة ركضاً متجاوزة كل درجتين معاً. يمكنني في الظلام الحالك أن أتوجّه من أيّ غرفة لأيّ غرفة أخرى وأدع يدي اليمنى تنزلق فوراً على الجدران ما إن أعبر العتبة لئلا أصطدم بالزوايا. البرد القارس لبلاط الحمام البنيّ اللون ومطبخ الطابق العلوي والشتاء الأقل برداً في الحمام في آخر الممر. الإحساس الخشن والمهدئ بآنٍ واحد لسلة البحر تحت أقدامي الحافية في الصالون. منذ بزوغ الفجر،

يضفي البلاط الآجري في الغرفة الصيفية الكبيرة إحساساً بالسعادة بدفئه المنبعث في أجسادنا فيمده بالراحة مع أوائل أشعة النهار. تصدر الشبكات صفيقاً بطيئاً وثقيلاً حين تتعرض لريح الميسترال وكنا قد نسينا إغلاقها.

إنني أعرف كل المناظر المطلة على الحديقة والتلال والبحر حسب النافذة التي نطل منها بل ربما أتمكن من تحديد أين تبدأ وأين تنتهي ما تقبله النظرة. كما أنني أعرف حق المعرفة الانبهار المفاجئ الذي يستولي علينا صيفاً في كل مرة ندخل فيها بسرعة من الحديقة إلى المطبخ الصغير المعتم تقريباً فيحاصرنا السواد للحظات جاثماً أمام أعيننا.

يمكنني أن أغمض عيني وأجول في كل مكان في المنزل وألج إلى كل غرفة وكل ممر وكل زاوية. ها نحن نستعد لعرضه للبيع، وما زلت لا أعرف إن كنت أفضل حين أقيم فيه أن أطيل البقاء في الطابق السفلي مستمتعة بقرب الغرف من الحديقة ومن الخشونة المطمئنة للغرف ومعاشرة ذكريات طفولتي إذ كنت أنام هنا حين تمّ تشييد الشقة بعد مضيّ عدة سنوات من تشييد المنزل. أما في الأعلى حيث يروق لي النور المبهر الذي يغسل كل الغرف وتلك الإطلالة التي تقطع الأنفاس. أظن أنني سأتردد حتى آخر يوم.

كان ذلك منزلنا حيث لم يكن ينقصني شيء. أترعت بالحياة والشمس والطعام والحضن الدافئ. حين أذكره لا تخطر لي جدرانه البيض ولا الحديقة ولا تلك الإطلالة على البحر، بل ذاك الإحساس بجسد أتوق دوماً لعناقه. ذاك الجسد المكعب الأبيض المتعدد الأذرع. ذاك الجسد الثقيل والأخرق. هذا هو أول إحساس يتبادر

إلى ذهني، فيزيائيّاً أفكر بالمنزل وأفكر بجسده. أتخيل أنني أشده كله إليَّ وأضمه حتى أشعر بنبضاته المنتظمة والوديعة تخترقني وتداعب جسدي أنا وفؤادي.

أعجز عن تحديد ميعاد تحول المنزل من مجرد مكان بسيط إلى جسد. عهدته منذ أعوامي الثلاثة وما زلت أزوره وفي كل مرة أتعلم كيف أعرفه بحميمية أكثر. على مرّ الزمن، تعلق إهابي وجسدي وروحي بالمنزل ومن شدة التعلق التصقت به ومن شدة الالتصاق اتحدت به. أصبح بناؤه جزءاً من هيكلي العظمي، بنيت فيه عالم أمانيّ الداخلي.

لأن هجمتي باريس الواقعة يوم الأربعاء السابع من كانون الثاني ويوم الجمعة التاسع من كانون الثاني أيضاً كانتا بالقرب من منزلي، راودني إلى هذا الحد إحساس أنه تم اقتطاع جزء من جسدي! بينما كنت في مأمن في شقتي وبالواقع لم يطلني الرعب بشكل مباشر فما كنت من الضحايا الستة عشر ولا من أقاربهم. ولكن لماذا راودني هذا الإحساس الفيزيائي بما أصاب جسدي؟ لماذا هذا التباعد ما بين حقيقتي (إحساسي أني أصبت) وما بين الحقيقة (أن الهجمتين لم تطلني بأيّ مكروه)؟

لطالما كانت نقاط التواصل ما بين الداخل والخارج واضحة للغاية على مرّ السنين. كنت أميز أقل التباس ما بين كل ما يخص العالم الخارجي وما يمس محيطي الخاص. كم كان بديهيّاً، بل ما كنت أطرح حتى السؤال. بدأ هذا غدراً في البداية، حيث بدأت حدود الواقع تتلاشى شيئاً فشيئاً وازداد تعقيداً واضطراباً. باتت الحدود نافذة فما يحدث في الخارج يتلوى إلى أن يغزو عالمي الحميمي وينتمي إليه. لكن بقي الداخل والخارج كلمتين غير قابلتين للنقاش ليضمن جسدي التحديد النهائي.

في السابع من كانون الثاني، بعد أن أمضيت عدة دقائق خلف شاشة

حاسوبي وأكتشف هول الرعب، استدرت نحو ج. بينما أنهت هي البوظة وجلست على الأريكة السوداء في الصالون لتقرأ كتاباً ككل يوم أربعاء.

قلت لها: «حدث شيء مروع»، رفعت وجهها نحوي منتظرة المزيد: «هجمة إرهابية، بالقرب من هنا. لهذا كانت صفارات الإنذار تعوي منذ قليل. أجهزوا على أحد عشر شخصاً في شارلي إيبدو». أجهشت بالبكاء وكررت: «هذا فظيع، هذا فظيع».

لم أكن أعرف كيف أستوعب الكارثة ولا كيف لي أن أواجه بكلماتي ما لم أستوعبه بعد، فما حدث لا يندرج تحت أيّ مسمى وحشيّ لدرجة أعجز عن فهمه. كان خارجاً عني ويستحيل الإمساك به أو استيعابه. يندرج تحت ما لم يوجد بعد وما حاولت دفعه بكل ما أوتيت من قوة ورميه في العدم ومع علمي المسبق أنني سأفقد جزءاً مني وأنا أشعر بجسم مرعب يقترب نحوي بأقصى سرعة وينقض عليه ستنفجر في وجهي وتغرقني وتملؤني كلي وهكذا ستبقى حقيقة، ستبقى في رأسي وفي جسدي، ستبقى كليّاً، ستبقى، فما لا نفكر به هو ما سيبقى.

كيف سأعثر على الكلمات التي أصف فيها لـ ج.؟ لا كلمات ممكنة لا لقول ولا لتخفيف العنف. سألتني: «هل هذا خطير جدّاً، ماما؟» وأمسكت بيدي بحنان متناهٍ كما فعلت في المرات القلائل التي رأتني أبكي فيها. هززت برأسي، لست أدري ما أقول. إنها الهزيمة، هزيمة الكلمات، هزيمة الواقع، هزيمة كل شيء. جلست.

أعجز عن استحضار اللحظة التي قرعت فيها ابنتي الكبرى الباب

ودخلت الشقة ووضعت حقيبة ظهرها في الممر وألقت علينا تحية مرحة كما تفعل يوم الأربعاء ظهراً. أعجز عن تذكر اللحظة التي سألتها عن الأمر. كيف سألتها وما الكلمات التي لفظتها ولا كيف صار وجهها. أعجز أن أذكر إن كنت قد بقيت معها إلى المائدة أو أني تمددت في غرفتي.

لم أعد أذكر شيئاً ، غابت تلك اللحظات وكأنني غصت طيلة الوقت في غرفة سوداء.

وقعت، وقعت، وقعت وما انتهيت بعد من الوقوع. هم من وافتهم المنية هناك بعد بضعة شوارع من هنا، هم وليسوا أنا ولكن أنا أقع وأقع. لماذا يقع جسدي هكذا. لماذا لا يكف جسدي عن الوقوع. جسدي الذي انتزع مني وأنا انتزعت من نفسي، أنا انتشلت من ذاتي، أنا تفككت. تمددت على سريري لكنني ما زلت أقع. تمددت على سريري ولكنني لم أعد أشعر بجسدي، لم أعد أشعر بظهري ولم أعد أشعر بأبعاد جسدي. أريد أن يتوقف هذا، أن ينتهي هذا الهبوط وأتمسك بفكرة. إنني أقع في حفرة، أجهزوا على أحد عشر شخصاً في الجريدة. دخلوا المبنى وصعدوا وقتلوا أحد عشر شخصاً في الجريدة. كانا اثنين، دخلا غرفة التحرير وأطلقوا النار عليهم، أطلقوا عليهم عن كثب وهم جالسين حول طاولة التحرير، أولئك الذين كانوا يتحدثون ويفركون أرجلهم ويمخطون وينكدون، هم الذين رأوهم قادمين ولا بدّ أنهم سمعوا ضجيجاً ورفعوا عيونهم في البداية وابتسموا في البداية ضاحكين. لا بدّ أنهم رأوهم وكانت آخر نظرة لهم في الحياة، في حياتهم. آخر نظرة في حياتهم كانت إلى هؤلاء الاثنين بسلاحهم المصوب نحوهم. هل تسنّى الوقت لتلك الوجوه لحفظ آخر نظرة لهم في الحياة، هذا ما كان وهكذا انتهى. رأوهما في غرفة التحرير، رأوا الرجلين يدخلان غرفة التحرير ويصوبان عليهم

عن كثب وهكذا انتهى الأمر. كانوا هم من لقوا مصرعهم وكنت أنا من وقعت، لماذا عساي أقع، لماذا أقع الآن، أنا التي أقع في حين إنهم هم من لقوا مصرعهم. هل أنا ضعيفة، هل أنا ضعيفة لدرجة أن أقع هكذا ولا أستطيع الوقوف. لم أكن أعرف أنني ضعيفة إلى هذا الحد. أكتشف اليوم كم أنا ضعيفة وكم أنا رخوة حتى إنني لا أستحي من نفسي، يصل بي الحد ألا أخجل. أقع، هما اللذان دخلا المبنى وصعدا وأجهزا على أحد عشر شخصاً في الجريدة. لا أستطيع، لا أستطيع، لا أعرف ما الذي لا أستطيع وددت معرفة ما لا أستطيع ولكنني أعرف ما لا أستطيع، لا أستطيع، لا يمكنني. أجهزوا على أحد عشر شخصاً في شارلي إيبدو، هذه الجملة تدفعني للوقوع، إنها أقوى مني، إن هولها أكبر مني، إنها تلتهمني، تبتلعني، أستسلم لها لتبتلعني، التهمت، التهمتني الجملة. ضعت في الجملة، أردت أن أستيقظ، أن أتحرك، أن أخرج من الجملة، أن ألتقط الجملة، أن أحتجز الجملة، وددت أن أستعيد سلطاني على الجملة وأصبح أكثر قوة منها أبتلعها بدوري وألتهمها وأستوعبها وأدوسها وأخنقها وأصرخها، أصرخها، أصرخها وأصنع منها شيئاً ما. دخلا المبنى وارتقيا الأدراج وأخذا أنفاسهما ثم أجهزا على أحد عشر شخصاً في شارلي إيبدو. أودّ أن أصعد إلى السطح، إلى سطح الجملة، سطح أفكاري، سطح جسدي. أن أعثر على ظهري وأشعر بجسدي متمدداً على السرير. جسدي مع وجهي وقدماي وذراعي وعمودي الفقري. جسدي المستلقي على السرير، جسدي أنا.

ما انتبهت أنني أعاني من تقلصات، منذ متى وأنا أعاني من هذه التقلصات. إنني في شهري الخامس والنصف وأعاني من تقلصات. يجب أن أوقفها فوراً وإلا فقدت الجنين. يجب أن أنتصب على

السرير، أن أنتصب في جسدي، عليَّ أن أعيد السيطرة على جسدي. لا بد أن أكفّ عن النحيب، لا بدّ أن أكفّ عن الفواق وألا أستسلم للوقوع والابتلاع والالتهام. لا أريد فقدان ابني، عليّ الصعود إلى السطح. يجب أن أتصل بصديقة، أن أسمع صوتاً ما، أن أسمع صوتاً أحبه، كما يجب أن أسمع صوتاً عليَّ أن أطفو على السطح. يجب أن أكفّ عن تخيل المذبحة، أكف عن تخيل ذهول الوجوه. عليَّ أن أكف عن التساؤل إن كانوا قد صرخوا أو بقوا هادئين. عليَّ أن أوقف الصور وطردها أبعد ما يمكن خارجاً عني وبعيداً عن عقلي، بعيداً عن جسدي. أولئك هم من وقعوا، هم من وقعوا وأنا لم أعد أرغب بالوقوع، لا أريد فقدان جنيني. جنيني يجب أن يحيا داخلي، الحياة داخلي لا المذبحة، الحياة لا القتل. الحياة، عليَّ ألا أفكر بشيء آخر سوى الحياة. الحياة، الحياة، عليَّ أن أستعيد ملكية نفسي، أن أستحوذ مجدداً على جسدي، أن أملك مجدداً بطني. لا بد أن أنتصب ببطء، أن أنتصب على سريري، عضواً تلو الآخر. أن أجلس على سريري. هكذا، أجلس وأرفع عيني وأحدق بالجدار المقابل، أحدق بالجدار، أحدق باللون الأبيض للجدار، بياض الجدار، أن أشعر بجسدي لا بالغليان، أن أتنفس وأتنفس وأتنفس.

كان له اسماً، له اسم. يفاجئني الحديث عنه بصيغة الماضي كما لو أننا فقدناه. سيبيل. لطالما ارتبط اسم سيبيل بمنزلنا. كم حاول والدي أن يوضح لي قبل أن يعني لي اسم سيبيل «مملكة العطلة» بأنه اسم آلهة في الأساطير. كان يقول لي: «اعلمي أنها أم الآلهة. إحدى أكبر الآلهة في العصور القديمة في الشرق الأدنى». لم أكن أريد أن أنصت له: سيبيل هو منزلنا في نيس. لا يمكن لأيّ حقيقة أخرى أن توجد خلف هذا الاسم ذي الكتابة الرمزية ورنين حروفه الوحيد القادر على ترجمة ما كان يمثل هذا المنزل بنظري: جميل جدّاً، أجمل من أيّ مكان في العالم أو تقريباً. هذا الاسم الغريب، سيبيل، لن أربطه بشيء ولا بالماضي البعيد ولا بأيّ قصة إلهية، فقط بماضينا نحن وبقصتنا العائلية، إذ السنة الصفر هي عام ١٩٧٥. قبل هذا التاريخ لم يكن هناك شيء، لم يكن هناك سيبيل لا تاريخ ولا ناس. كنت أحقد على والدي في كل مرة يذكرني فيها أن سيبيل تنحدر من القديم وتعود للأساطير.

إلى يوم أصبح عمري أربعة عشر أو خمسة عشر عاماً، بعد مدة طويلة، وكنت وحدي في غرفتي في باريس، عندها انتابني شعور غامض بأنني أخون شيئاً ما، دون أن أدري ماذا أخون، خاطرت

بفتح معجم الأساطير، تجاوزت بسرعة الأسطر العدة التي تتحدث عن الآلهة وقرأت عن سيبيل تنحدر من فريجيا ويشار إليها بوصفها أم الآلهة. تقترن بالخصب، تتجسد بالطبيعة البكر وغالباً ما تترافق مع أسود. يقال عنها إنها تشفي من الأمراض وتحمي شعبها إبان الحرب. لم أرغب بمعرفة المزيد وأغلقت الكتاب. ما زلت أذكر كيف واسيت نفسي: التوافق في كل شيء. ألم تكن سيبيل بالنسبة لي منزل الأم، بالمعنى الحرفي للكلمة بداية، منزل يعود لأهل أمي وعلى رأس القائمة الإمبراطورة والحامية تينا، جدتي الإيطالية، المحبة للشمس والجذابة والتي حمت وجـودي بحزم بالمعنى المجازي ثم صار الملاذ والمكان الذي أرسو فيه؟ المكان الذي كان عليَّ العودة إليه والعودة باستمرار إلى أن ذرع حياتي الخاصة؟ ألم يكن ذاك الفضاء الذي آوي إليه خلال العطلة وأبرأ فيه من أمراضي وأستعيد قواي (أستعيد وجنتيَّ ولوني. كما كانت تقول لي جدتي وهي تضمني في أحضانها). لطالما كان يزودني بالقوة؟ تتناوب فصول السنة، والعناية بالحديقة ممتازة، العشب مقصوص والأشجار والأدغال حسنة التقليم ومع ذلك تجسد في خيالاتي على أنه الطبيعة والمسرة والحماية، فهناك تعلمت كم يشعر جسدي بالفرح ما بين النباتات المتوسطية مغطى بالنور وتدفئه الشمس، بل تطحنه الحرارة ويبهره الأريج. أجل، هناك اكتشفت شيئاً من التراخي والإهمال ما لم يكن له مكان في حياتي الباريسية الصارمة والمتقشفة. في منزل نيس، يتمدد الزمن وتعلّم جسدي تذوّقه. لا وجود لأيّ أسد في الحديقة. أجل هناك بعض القطط البرية التي تقفز مرحاً وتهرب أمام أنظارنا. ولا يبقى في خيالي سوى الحفيف والوفرة والغزارة.

إنهما جداي من طرف والدتي باولو وتينا (واسمها الحقيقي مارغريتا) توراسا، إيطاليين من مدينة بيمون، هاجرا عام ١٩٣٠ إلى نيس هرباً من الفقر وموسوليني أو من موسوليني والفقر. كانا قد شيّدا هذا المنزل بعد حوالي أربعين عاماً تقريباً، ١٩٧٥، حين وجدا له سبيلاً. قبل عدة سنوات، قام جدي ببناء أول منزل، لابيتلجوز، على بعد عدة أمتار من الموقع الحالي لسيبيل، نحو الأسفل. ذاك المنزل يطل على خليج «الآنج». كم كانت الإطلالة خلابة. كان المنزل أبيض ومستطيلاً وسقفه مسطحاً. شكل الفخر لجديّ وأعتقد السعادة أيضاً. بعد مضيّ ثلاثة أعوام على بنائه، انتصب بناء بعدة طوابق أمام المنزل فاستشاط جدي غيظاً وقرر بناء منزل مشابه بل يضاهيه بهاءً ولكن نحو الأعلى ليجد الإطلالة التي لطالما استهوته. وهكذا كانت لا سيبيل مشابهة لتوأمها على بعد مئة مرة نحو الأسفل.غالباً حين أكون في الحديقة، أرى تلك الجدران البيض المماثلة لجدران منزلنا. يا له من حضور مثير للاضطراب، قريب ومشابه جدّاً لكنه لا يعني لي شيئاً. حاولت أن أستعيد بعض الذكريات للحظات قضيناها معاً ولكن لم أكن قد تجاوزت الثلاث سنوات حين تركناه. أستحضر صورة واحدة: كنت جالسة على الأرض في ممر الحصى الأبيض الذي يصل إلى المنزل، بيدي لعبة (ما هي؟ أذكر لعبة خشبية ذات أكمام طويلة) وأعتمر قبعة شمسية، تدور حولي أصوات أنثوية ضاحكة (والدتي؟ جدتي؟).

منزلنا أبيض اللون وكذا ذاك المنزل ومستطيل الشكل ذو سقف مسطح. يطل على البحر الممتد هناك في الأسفل أزرق لازورديّاً. أرى والدتي سعيدة وكذلك جداي، أصدقاؤهم مجتمعون وولائم الأعياد التي تطول لساعات، نخرج منها الواحد تلو الآخر ببطون

مليئة. تعلمت فيه تلك الرائحة التي لا نستنشقها بأنفنا فقط بل بكل جسدنا إلى أن نفقد الوعي. مزيج من العنبر وزهر العسل والجوري والليمون... دخنت سجائري الأولى سرّاً وراء الأدغال الكثيفة. حاولت طيلة طفولتي الإمساك بالهرة البيضاء والسوداء التي تتمدد بالقرب مني.

تعلمت حرارة العائلة، الأجداد والوالدين وأبناء وبنات العمومة والأعمام والعمات منهم فرنسيون ومنهم إيطاليون. حين كانت عائلتي الإيطالية تمضي اليوم في منزلنا، كنا نطرب بتلك اللغة التي لطالما رفضت والدتي أن تحدثنا بها ولكن اعتادت عليها آذننا مع مرور الوقت. كان والدي يقول: «آه! انتباه، حط الإيطاليون الرحال. سيبدأ الدوار». وفي الواقع، تمضي تلك الأيام مع أحاديث عالية الصوت وحركات باليدين. أحتفظ من تلك الأيام بذكرى الصخب السعيد دون نهاية.

هناك، حُبيت بشعور الأخوة وعشته، ففي السنوات الأولى وقبل أن يحضر الطابق السفلي، كنت أنا وأختي ننام على السرير ذاته في مكتب جدي. ما زلت أذكر طقوس المساء القائمة على وضع وسادة وسط السرير تماماً بما يضمن تقسيماً دقيقاً وبذلك تحظى كل منا بالمسافة نفسها طيلة الليل. كنا نضع الوسادة معاً ونحدد المسافة معاً. تتلامس أيدينا وتحتك وكأنها تحضر لأمسية. كل شيء كان بسيطاً. عادة ما كانت أختي تغفو بسرعة جدّاً. أذكر تلك اللحظات في العتمة حيث تتناهى أنفاسها العذبة لمسامعي. كم كان ذلك يبث الطمأنينة في نفسي، كم كنت أحب وجودها بقربي فهي بالنسبة لي كامتداد جسدي، إنها تحميني. فيما بعد، خصصت لنا غرفة في الطابق الأرضي «الغرفة الأخيرة». كنا نطيل الحديث في العتمة قبل

أن نخلد للنوم. تتعالى قهقهاتنا ونتشاجر فيخوننا. تقاسمنا كل هذا فكان الملح. لم نعش هذه اللحظات في باريس، فغرفنا كانت متباعدة الواحدة عن الأخرى، لم يعد هناك مكان لحميمية مشتركة. الآن حين أفكر بأختي، أستعيد لحظات الطفولة في نيس، مساء حين كنا نخلد للنوم. هذا الأثر الملموس والذي يفوق الوصف في علاقتنا.

مساء في المنزل، قبل أن أخلد للنوم، أخرج إلى الحديقة للمرة الأخيرة وألقي نظرة من بعيد نحو البحر ككتلة معتمة وجامدة ونحو «لا برومناد ديزانغليه» التي تتلألأ بآلاف الأنوار ويضوع عبق التراب. يسود الصمت والسكينة خلا نقيق بعض الضفادع. أمعن النظر وأغرق في الليل. عمري ست سنوات، خمسة عشر عاماً، ثلاثون عاماً، أربعون عاماً، بنت صغيرة، فتاة، يتيمة، أمّ وأمعن النظر للمرة الأخيرة قبل أن أخلد للنوم. هنا، أحمل كل عمري.

ما أذكره بدقة هو ذاك الشعور الذي اعترى جسدي ككل بأن الكارثة حلّت ولن يكون لها نهاية.

أغلق ج. السماعة. أثقل كاهلي الصمت السائد في الشقة. عجلت نحو الإنترنت. ألقيت نظرة بالبدء على الفيس بوك ولكن ما أتى أحد على ذكر الرهائن في باب فانسن. تتحدث المواقع عن أحداث شارلي إيبدو وتطويق الأخوين كواتشي. خلال عدة لحظات، استعدت الأمل: لعل ج. على خطأ بما أنه ما ذكر شيئاً على الفيس بوك أو لعله سمع إشاعة خاطئة؟ ليلة أمس بقيت محتجزة في المقطورة في المترو لثلاثة أرباع الساعة دون أن أتمكن من الخروج، وشاع الحديث عن تهديدات بهجمات في شبكة القطارات. انطلق القطار مجدداً ومضى اليوم بسلام بالمواقف المعتادة والطويلة على كافة الخطوط. نعم، ترد تحذيرات خاطئة من كافة الأنحاء واستسلم الكثيرون للرعب. لعل معلومة خاطئة وصلت لـ ج.

ما استغرقت المهلة سوى بضع ثوان، الوقت الكافي لأتصل بشبكة الإنترنت وأجد صفحة جريدة لوموند التي أكدت أن اختطاف الرهائن في محلات كاشيه في باب فانسن و«تابعوا آخر المستجدات مباشرة». يكتنف الغموض كل شيء ويجري الحديث عن إطلاق نار، عن إجراءات الاحتواء وخاصة في المدارس المحيطة.

«لا تطئي خارج المنزل! لا تطئي خارج المنزل!» يقتحمني صوت ج. الطاغي كالمطرقة على رأسي وجسدي.

إجراءات الاحتواء: أستمر باكتشاف مفردات الهجمات. يبذل عقلي قصارى جهده ليستوعبها: «احتواء» ألم يكن تعبيراً يستخدم عادة لإجراءات الإسعاف الصحية؟ أليسوا مخطئين؟

لا يعنينا! صرخت به صمتاً. حقّاً، لا يعنينا! أنا وأنت نتعلم اليوم أن اليوم وفي هذه الحالة يتحدثون عن الاحتواء ونحن نفهم المعنى وبكل الأحوال ليس هذا موضوعنا!

وبّخت عقلي وفكرت بابنتيّ فكل منهما في مدرستها وحاولت تهدئة الرعب الذي استحوذ عليّ، هذه المرة أنضم للتوّ للخوف الذي اعتراني منذ يومين، وكأن ما بدأ مع مجزرة شارلي إيبدو لا نهاية له يتابع تقدمه الجوفي العديم الرحمة. قلقي يقوم على معرفة إن كانت مدرستاهما القريبة جدّاً من فانسن ضمن محيط الاحتواء والذي أجهل حجمه كليّاً. يعلو صوت هيستري دون انقطاع: لم ينتهِ ذلك إذن، لم ينتهِ بعد! بينما أبحث بطريقة محمومة عن معلومات أكثر دقة.

لم أعد قادرة على التفكير. ترتعد أطرافي وظهري يرتجف ويداي ووجهي أيضاً. وضعت يدي على بطني كم وددت لو كانت ترساً أو حصناً. وددت أن تكون أقوى مني، أن تكون حاجزاً فتبقي الخوف بعيداً عن بطني. لكنني كنت عاجزة، فيدي كانت ترتجف كسائر جسدي. ما عرفت يدي أن تحمي طفلي. عمري اثنان وأربعون عاماً وخلفي قصة وثقافة ومرسى. لكنني عجزت عن التصرف، ليس بحوزتي أيّ نقطة علامة. في غضون لحظات، حطمت الهجمات كل ما ظننت أنني تعلمته منذ وجودي في هذا العالم.

كنت أبحث عن معلومات. أطبع على لوحة المفاتيح، أطبع بشكل سيئ وأخطئ بالأحرف. اضطررت لإعادة طباعة كل الكلمات تقريباً: «محيط الاحتواء»، «فانسن»، «احتجاز الرهائن». حينما كنت أطبع تساءلت، ترى ماذا كنت سأفعل لو لم يكن هناك إنترنت، كيف كنت لأجد ما أبحث عنه بالزمن الحقيقي وبهذه الطريقة الإسعافية. كما تساءلت إن كان وجود جنيني في بطني قد غير أحاسيسي، لعل فكرة أنني أمنحه الحياة ضاعفت من غمي وجعلني أكثر حساسية للعنف المفاجئ الذي حل من حولنا. تساءلت بيد أن السؤال ما دفعني للبحث، أشعر بالعجز وعقلي يدور بالفراغ. أتساءل أوتوماتيكيّاً وأتابع الطباعة على لوحة المفاتيح. أريد معرفة وتحديد محيط الاحتواء. الحقيقة الوحيدة التي تشغل تفكيري وجسدي هي أبنائي. كأن الإعلان عن الهجمات الثانية قلبت كل شيء بعنف. الحياة اليومية والعالم من حولها أخذا نوعاً من الطبيعية والاستمرارية الزمنية، الشيء الوحيد الذي هرب من هذا التفتت وطفا على سطح الواقع هم أبنائي. أجل، ما كنت سوى امرأة في الثانية والأربعين ولكنني ذئبة والذئبة تريد استعادة أبنائها، هذا هو الشيء الوحيد المهم. أريد ابنتيّ، أريد أن أشعر بهما ملتصقتين بي، أشعر بجسديهما وحرارتهما وأنفاسهما. ثلاثتنا معاً.

أخيراً توصلت لمعلومة دقيقة حول محيط الاحتواء والذي تمّ توسيعه منذ لحظات، إلا أنه ما احتوى حتى الآن أيّاً من مدرستي ابنتيّ. أخيراً لاح نور في عقلي وكأن غطاء سميكاً قد وقع وحرر جزءاً من قدرتي على التمييز، وخطر لي فعل ما كان عليّ فعله منذ برهة، اتصلت بإعدادية ابنتي البكر. الرقم مشغول، قلت في سري لعل الكثير من الأهل يطلبون الرقم ذاته. تراءى لي فجأة أن أعيد تركيبه مما يفسر أننا عرضة للهجوم ليس طبولوجيّاً فحسب بل العلاقات فيما بيننا

كبشر، شعرت أن هناك سلسلة غير مرئية فيما بيننا رجالاً ونساء دون أن نتعارف لكن يربطنا الغم ذاته والضرورة الماسة بلقاء صغارنا. بعد عدة لحظات، سألتني موظفة الاستقبال، ترددت لهنيهة فلم أعد أدري إن كنت أسكن في الدائرة عشرين أو بانيوليه، أخذت حياتي مساراً غريباً جدّاً في الأشهر الأخيرة. همس صوت داخلي: لذلك تموجين في الضباب. حسناً على الأقل تعرفين أين تسكنين. أجبت أنني أسكن في بانيوليه. حكمت الشابة: «حسناً إذن! يمكنها الخروج. فلا يحق لجميع الأطفال الخروج، يتعلق الأمر بمكان السكن. أنتم في بانيوليه، حسناً». صوتها هادئ ودافئ، ماذا فعلت حتى تمكنت من السيطرة على نفسها هكذا؟ استولى عليَّ شك مريع، تساءلت أيعقل أنني أخطأت بتقييم الواقع وأنني أسأت بردة فعلي، انتابني شعور من يوم الأربعاء بأن كل موجة عنف تستحوذ على جسدي مباشرة وهكذا دخلت وأبنائي معي في دائرة العنف أو لعلنا خارجها؟ ترى هل نشعر برباطة الجأش إن كنا داخل أو خارج دائرة العنف؟ إن كنا الضحايا أو المحميين؟ ما هي الحدود بيني وبين الهجمات؟ هل هناك واحدة فقط؟ لم أعد أعرف ولم أعد قادرة على تحديد جسدي ولا إن كان في الداخل أم في الخارج. حاصرني مجدداً إحساسي أنني لم أعد أعرف رؤية الواقع كما هو، الواقع كما هو حقيقة. الواقع هائل جدّاً ومشوّه. انغرز الواقع في جسدي مفتتاً تفاصيله ويسرقني من نفسي. بينما أجهدت نفسي أن أبقي في ذاكرتي محيط الاحتواء، أنا نفسي فقدت محيطي. أنا نفسي أصبحت جسداً دون حدود، جسداً يتفتت. هل كانت ردة فعلي خاطئة؟ تساءلت في سري بينما فسرت الشابة على الخط صمتي بشكل خاطئ وأعادة صياغة إجابتها، ظننت دون شك أنني ما سمعت: «بالنسبة لبانيوليه، نسمح لها بالخروج». أدرك في أعماقي أن

لا معنى لهذا السؤال العبثي بشكل فظيع. بماذا تتطابق ردود الأفعال في مواجهة معيار كهذا وما الخطأ بردة فعلي؟ «نحن طبعاً نحن» هذا ما يقوله لي الناشر جان مارك، خطر لي فجأة في هذا الحطام دون ضياء فغص قلبي. آه! أجل، لطالما أحببت أن يعطوني مفتاحاً لقراءة الأحداث ويفسروا لي ما يحدث بكلمات واضحة وعقلانية ومنطقية، أن يمدوا لي مرآة لأكلم نفسي كما لو أنني طفلة صغيرة ويفسروا لي الأشياء، كل شيء كان بمنتهى البساطة، فالمسميات كافية لتعطيها إطاراً وتحددها تماماً: «أترين، هذا ما يحدث الآن. هذا هو بالذات وليس أيّ شيء آخر، لا تخافي». لكنني لم أعد طفلة، ومنذ زمن طويل ما عاد أحد يساعدني على رؤية العالم وما يحدث مرعب جدّاً. هل هناك كلمات ممكنة؟ وما هي الكلمات الممكنة بينما ما يحدث أشبه بمطر من رماد بدأ ينهمر على مكان بعينه وينتشر ممتصّاً كل ما يمرّ به، يعني: الكائنات وكذلك المعنى، الكائنات وكذلك النهار، ولا نعلم إلى متى ستبقى متقدة ومتى ستنتهي؟ راودني شعور أن مطر الرماد هذا قد أصابني، ما كنت لا في الداخل ولا في الخارج ولكن جزءاً مني تمّ امتصاصه أيضاً. لو أنهم أعطوني فقط كلمات أسمّي بها ما يحدث في فرنسا منذ ثمانٍ وأربعين ساعة، أو لو أنني وجدتها بنفسي لعل هذا الخوف المرعب الذي أشعر به تحتي وتحت جسدي ينجلي. خطر كل هذا بسرعة في بالي بينما تودعني مخاطبتي بصوتها الهادئ دوماً. تبدو شابة ولا بدّ أنها المرة الأولى التي تواجه فيها خطباً كهذا، ترى ما التجربة التي أكسبتها رباطة الجأش؟ تساءلت ترى ماذا كانت ستجيب لو أخبرتها أنني أسكن في الدائرة عشرين، بما أنني أرغب أن يدعوا ابنتي تخرج مهما كلف الأمر، التزمت الصمت.

اتصلت بـ ج. وشرحت له أنني أنتظر ابنتنا البكر في باريس ثم

سنحضر ج. من المدرسة ونذهب إلى بانيوليه. قاطعني قائلاً: «من الجنون أن تستقلّا المترو من منزلك إلى بانيوليه. لا نعرف ماذا سيحدث، ابقيا في باريس كلتاكما ولا تتحركا خارج المنزل. سأتدبر أمري لأحضر ج. من المدرسة. «شعرت أن الخوف يخنقني أكثر فأكثر». كلا، أريد الالتحاق بابنتي بأقصى سرعة، أخشى مما سيحدث لاحقاً، أخشى ألا نعد نتمكن، أخشى أن يحتجز كل منا في مكان مختلف، هناك ثلاثة مواقف فقط، لا داعي للقلق سنعبرها بسرعة، نعجل لاصطحاب ج. ثم نعود للمنزل. ستمر الأمور على ما يرام، أفضل رؤية ابنتي معي، لا أريد الانتظار هنا. أريد أن نبقى كلنا معاً في المنزل. كنت أتحدث بصوت مخنوق، ارتعشت واكتشفت حين نبست كلماتي أن لديَّ «منزلنا»، منزلنا حيث أرغب أكثر من ذي قبل أن نجتمع أربعتنا. منذ ساعة فقط، كنت أجهل أن لديّ «منزلنا» وهذا المنزل هو منزل ج. في بانيوليه، أجل لا أعرف أين منزلي علمت أن منزل ج. في بانيوليه هو ملجؤنا نحن الأربعة. لم يكن لديّ متسع من الوقت لهذا الاكتشاف الذي أربكني، عليَّ التحرك بسرعة، كان الخوف يتملكني، كنت خائفة جدّاً.

قبل ج. قائلاً: «حسناً، افعلي ما يحلو لك». كان صوته بطيئاً ومهموماً فأدركت كم هو قلق أيضاً. تصدع في داخلي شيء ما، لم أعد أصرخ ولم أعد أقول شيئاً فشعوري أنه هو خائف أيضاً، وهو الذي نادراً ما رأيته خائفاً منذ أكثر من عشرين عاماً التي عرفته فيها وأعلم مقدراته جيداً. فهو خلافاً لي يبقى متماسكاً في كل الظروف ويخبرني أفضل من أيّ جهاز كاشف عن خطورة الوضع. اكتشفت كم نحن واهنون ومترابطون أكثر من ذي قبل، فحرّض فيَّ هذا الشعور انفعالاً مجهولاً كأننا نتعانق بصمت عن بعد بينما كل من حولنا يخلي

المكان، وافق كل منا أن يضع ثقته بالآخر، وفي هذه اللحظة الحرجة الثقة ليست مجرد كلمات، فالثقة بمثل هذه اللحظة ستؤثر مباشرة على سلامة أطفالنا.

(كتبت هذه السطور بعد مرور عدة أسابيع من المأساة. أدركت وأنا أكتب الاختلاف الجلي ما بين الوضع وإحساسي بالوضع: لم يكن احتجاز رهائن في أسفل المبنى حيث أسكن، ولكن في أحد أبواب باريس قرب منزلي وأطفالي في هذه اللحظة كانوا بمأمن على الأقل في مدارسهم المحترمة، وما كان عليَّ سوى إحضارهم والعودة إلى بانيوليه. رغم ذلك، ما زال الرعب من تلك اللحظات مزروعاً في جسدي، الخوف ألا ينتهي هذا وأن دائرة العنف ستتوسع أكثر فأكثر وتقترب في كل مرة أكثر وتثير جنوننا قبل أن تصيبنا حتى وقريباً ستقبض علينا جميعاً. حدث يوم أربعاء ويوم جمعة وسيحدث دون شك هذا المساء، ثم غداً، والأيام القادمة. لن يعود شيء كما كان ولن يبقى شيء ثابتاً. لن تبقى أرض ثابتة. الأرض الثابتة، هذا سابقاً. إنه عالم يختفي فيه كل شيء في عدة ساعات).

تذكرت فجأة أن لديَّ موعد بعد ساعة، وهو مشروع سينمائي غامض حول أحد كتبي. الشابة التي ضربت لي الموعد تسكن في بلد آخر وهي في باريس هذا الأسبوع. خطر لي الموعد منذ لحظة، كان مهمّاً، كما حاولت إقناعي الشابة اللطيفة ف. التي تعمل في دار النشر التي نشرت كل كتبي تقريباً حتى وفاة جان مارك. صرخ صوت مذعور داخلي: يجب أن ألغي الموعد، لا أريد مقابلتها! عليَّ إحضار ابنتي! أخذت هاتفي واتصلت بـ ف. فاستلمت المكالمة، سمعت ضجيجاً خلفها، تبدو مرحة، كانت تتناول الغذاء في أحد المطاعم كما أخبرتني. عويت بالهاتف: «أما سمعت بالوضع؟ ألا تدرين؟»

خانني صوتي، وددت التكلم بهدوء بيد أنني ما استطعت، شعرت أنني أصرخ بصوت عالٍ هستيري واصطكت أسناني. انتفضت وقالت: «ماذا؟ ما الذي يحدث؟». «ولكن ألا تعلمين أن ثمة هجمات أخرى على مقربة من منزلي احتجاز رهائن في هذه اللحظة عند باب فانسن، الحي مغلق بأكمله كما أن هناك إطلاق نار!». «كلا، لست على علم بكل هذا». ظلت هادئة مما أغاظني. ألا تدرك شيئاً ، ألا تفهم أن هذا مروع، ذعرت، إنها لا تفهم أن الأمر مستمر وأن لا نهاية له، وأننا في قلق ليس له نهاية.

«ف. عليَّ أن ألغي الموعد، الأحداث تجري على مقربة من منزلي، هذا مستحيل. على كل حال، ليس بوسعها المجيء إلى هنا، فالحيّ مغلق كما من الجنون بالنسبة لها المجيء، أريد إحضار ابنتي، هذا كل شيء، لن أذهب لموعدي».

لم أجرؤ أن أضيف كلمات يلتهب بها لساني: لا معنى لهذا الموعد. ف.، السينما وكل ذلك لا شأن له الآن. في الوقت الراهن كل شيء ينهار من تحتنا، تعمّ الفوضى، ف. إنها الفوضى. لم يعد هناك قصص سينمائية ولا مشاريع، لم يعد هناك مكان لكل هذا.

قالت ف. بهدوء: «حسناً، لا تقلقي. لا بد أن ابنتيك بأمان. أخبريني وطمأنيني حين تحضرينهما. سأتصل بالمنفذة لأرى إمكانية موعد هاتفي».

كززت على أسناني، وما أضفت حرفاً.

كأنه كان تهديداً. شيء ما يرتسم بالبعيد يشعرني بالعنف الداخلي ومقدرته على إفساد عالمي الحميمي ما أحاول دفعه بكل ما أوتيت من قوة. لا يمكنني أن أصدق. كان التهديد أكبر من كونه واقعاً. تجاوز ما يمكن لعقلي أن يتخيل أو يتقن أو يستوعب. بقي الجدول الزمني غامضاً، تساءلت كيف كان في الصيف الماضي كما أعطوني إياه وأغلقت السماعة على فكرة الصيف القادم متناسية كونه الأخير. انتصب أمام عيني كحاجز في وجه التهديد، يرتفع حتى يخفيه وما توقفت عن إسقاطه على شاشتي، كنت أريده مجيداً ولامحدوداً ولا يقهر، يلتهم كل ما مرّ من صيف والصيف الذي ما عشناه بعد حاملاً معه كل السعادة والجمال واللحظات فنجعله أبديّاً.ما فتئت الصور واللحظات تتبادر لذهني. أذكر جديَّ المسكونين بجمال حديقتهما. مجرد قطعة ضاربة للصفرة بسبب الجفاف تفقد جدي صوابه. في الصيف، يسقيان كثيراً في الصباح الباكر ومساء مع غروب الشمس. أراهما كليهما واقفين في ضياء المساء يمسكان بأنبوب الماء. أسمع صوت الماء بوضوح قوي ومدهش يروي أدغال ورد الغار والعشب والأشجار والمزروعات بينما يسود الصمت من حوله.

أستعيد سهرات نويل، نذهب سيراً على الأقدام إلى الكنيسة الصغيرة

قرب المنزل لحضور قداس منتصف الليل، وفي كل عام كانت جدتي تقول: «انظروا إلى النجوم في السماء، إنها شديدة الضياء سيكون الطقس لطيفاً غداً». استدرت نحوها وأمسكت بيدها ثم أخرجت ثعلبها الطويل الخاص بهذه المناسبة، لفته حول عنقها وسمحت لي بمداعبته بأطراف أصابعه في كل عيد ميلاد، ينتابني الرعب من ذاك الرأس وتلك العينين المقلوبتين المستسلمة لنعومة الفرو الهائلة.

أذكر الموائد العائلية مع جديّ حين كانت جدتي، تلك الطاهية الجيدة، تحضر لنا أطباقاً إيطالية ونيسية مثل اللازانيا والرافيولي والمحاشي الصغيرة والبيتزا على طريقة نيس مع كرات اللحم بالإضافة لتارت الفواكه والدراق المحشو بالحلوى، وما كانت تغفر أيّ تأخير عن المائدة خاصة حين يكون الطبق معكرونة، لا بدّ من تناول «الباستا الدانت» ساخنة. تنادينا فنركض إلى المائدة حتى جدي الذي يعمل أحياناً في الطرف الآخر للحديقة يأتي للتوّ صامتاً بخطى متثاقلة وبطيئة ويجلس إلى المائدة دون أن ينبس بكلمة ويعقد منديله الأبيض حول رقبته، تقاليد لطالما سحرتني.

أذكر حين كنا نسبح في البحر أنا ووالدي ووالدتي وأختي وأخي، نسبح طويلاً. تحرص والدتي ألا يبتل شعرها فتسبح رافعة رأسها، تعبر البحر الأزرق الشاسع دون كلل، تستدير نحونا أحياناً، تبتسم وتقول: «لا تنسوا يا أطفال، أن هذا صنع الإله» فيتردد صوتها بشكل غريب على صفحة الماء.

أتشابك مع كل هذه الصور الآتية من الماضي كما ينبثق إحساس لست أدري من أين، فتسكنني ذكراه. أتساءل ولِمَ هذا الإحساس

بالذات؟ هل هو ذاك الإحساس الذي راودني هناك، في المنزل، حيث عشته بقمة الوله؟ كان عمري سبعة عشر عاماً ووددت أن أفهم ما هي الأبدية. أغمضت عيني وحاولت تخيل خط لا نهاية له يستمر دوماً نحو الأمام. في كل مرة، يضعف تركيزي ويتلاشى فيتوقف الخط وتقع الأبدية في الماء. إلى اليوم الذي قلت فيه في سري إنني ربما أخطأت الاتجاه: لم يكن أفقيّاً بل شاقوليّاً. أستحضر تلك اللحظة حين وقع كليّاً كل شيء، كم كان الأمر صعباً. حين توصلت له، كان قابضاً. بقي الدوار لساعات.

أذكر حين كنت واقفة في حديقة المنزل وأذكر جيداً سقوطي والدوار. ما زلت أذكر، ما زلت.

أفترش أيامي حيث تختلط الذكريات وتطفو دون انسجام، ينتصب رسم المكعب الأبيض أعلى البحر غير آيل للزوال. كيف سيغيب المنزل من حياتي يوماً؟ ينطق أحد أفراد العائلة أحياناً بكلمات مثل تخمين، مكتب العقارات، مواصفات فيدنو التهديد بغتة ويصرخ داخلي ويرتجف. دفعته مجدداً بكل ما أوتيت من قوة، أرفض أن يحدث انشقاقاً. فقدت حيزاً من أرض لكنه ما زال يتمسك. إنه يتمسك.

مشيت مع ابنتي حتى المترو، أمسكتها بيدها مثلما كانت صغيرة وسارعنا الخطى، كل الناس كذلك. حاولت اعتراض نظرات المارة وما نجحت أبداً، تساءلت ترى هل الجميع على علم بما يجري على مقربة من هنا. اتصل ج. مجدداً ليقول لي إنه لا يعتقد أنه من الممكن الوصول للمنزل فكل الطرقات مغلقة. قال لي: «أنا قلق، لست واثقاً أن بوسعي الوصول للمنزل، شعرت أننا علقنا بالفخ. شعرت ابنتي بالخوف، وصلني خوفها من ضغط يدها بيدي لكنها لم تقل شيئاً. جلسنا في المقطورة، عدد الناس أقل من المعتاد وأكثر صمتاً. عبر المحطات الثلاث دفعة واحدة، كان تركيزي شديداً، أنتبه لكل صوت وكل حركة. أتساءل ترى هل يعرف الناس الجالسون في مقطورتنا، ترى بِمَ يفكرون أو بالأحرى هل هم قادرون على التفكير؟. راودني إحساس بالتغيير، لم أعد ألاقي نفسي في المكان الصحيح، لست حيث يجب أن أكون. أنا هنا حيث أمر كل يوم مرتين على الأقل منذ عدة سنوات ولكنه في هذه اللحظة لا يمت بصلة للمكان الذي طالما عرفت، أصبح أرضاً غير مسكونة، منطقة معرضة لكل شيء، منطقة بثت فيَّ الخوف ذاك اليوم وضايقتني. بدا لي كل شيء متبدلاً. حاولت ألا أفكر وألا أتخيل ما يحدث على بعد عدة أمتار، هناك دون شك، يحدث ما لا اسم له وهنا، أنا وابنتي في المقطورة، في اللحظة التي

يحدث فيها ما لا مسمى له على مقربة من هنا، كنا كلتانا جالستين على المقعد ونقترب من المنزل وما لا مسمى له متجمد يحدد الكون ونحن نتحرك على مقربة، نعبر بالقرب منه، نعبر بحرية قريباً جدّاً. يا للدوار، مجرد التفكير بالأمر يدوخني. عليّ ألا أفكر، أودّ أن أعبر المحطات الثلاث بسلام، إننا نقترب من المنزل مع كل لحظة، هذا ما عليَّ أن أفكر به وحسب، لن أفكر بشيء آخر خاصة الرهائن. لا بدّ أن أكون أنانية وأقول في سرّي إننا نحن سنصل إلى منزلنا وإلا لأصبنا بالجنون ولاستحوذ على عقلنا خاطفو الرهائن. تمتصنا مجدداً غيوم متلبدة. في تلك الأثناء، ترك لي ج. رسالة يخبرني أنه وصل إلى المنزل وأحضر ابنتنا من المدرسة، خلال خمس عشرة دقيقة، عشر دقائق، خمس دقائق سنصل وسنجتمع كلنا معاً في المنزل، في مأمن.

استدار ج. نحونا بعد لحظات وأغلق الباب بالمفتاح وهو يدفع ج. بلطف للداخل ثم قال ببساطة: «كم هو شعور مريح أن نلتقي في المنزل».

الهجومان على وشك الانطلاق، أحدهما في المطبعة حيث اختبأ القاتلان اللذان نفذا مجزرة شارلي إيبدو والآخر في متجر باب فانسن. مسمرين أمام جوالي، نتابع تطور الأحداث لحظة بلحظة. سيتم إطلاق الهجمتين. جلست على الأريكة الرمادية في الصالون وحضنت ابنتيَّ، كل منهما طوقتها بذراع، اخترقتني حرارتهما، تخلل جسداهما جسدي وإهابي. أغمضت عيني وتشبعت برائحتهما. شعرت بحركات الجنين في بطني وتساءلت ترى هل حركاته هي ذاتها لو كان الوضع هادئاً، ترى هل يشعر هذا الكائن الصغير الذي أحمله بأحشائي، في أعماق عرينه بعنف العالم؟. تساءلت ترى هل كنت أنا نفسي لأشعر بما حصل بالشدة نفسها لو أنني ما كنت أضم حياته. يبدو أنني أعيش

واقعين متعارضين في آنٍ واحد منذ ثمانٍ وأربعين ساعة. واقع الأمومة والبطء والاستمرار، زمن يمددني بعيداً عن ذاتي. من جهة أخرى، واقع يرى أن الحياة تنقطع بضربة وحتى الزمن نفسه ينقطع بضربة. ضممت ابنتيَّ بشدة نحوي. هنا في المنزل نجتمع كلنا، هذه المرة لا يساورني الشك، نحن في الطرف الآخر للعنف. ما كان شيء أبداً لا بهذا البرود ولا بهذه الحرارة.

تمّ إطلاق الهجمتين، صمتنا. مرت عدة دقائق وشاشة جوالي لا تعرض شيئاً أبداً وكأنه ثقب أسود، ثقب طويل وشاسع وأسود يمتص كل ما هو ممكن. تتردد صفارات يوم الأربعاء المشؤومة في أذنيَّ. فكرت بالرهائن.

يبدو لي أن زمن الهجمات طال كثيراً وكان بطيئاً ومشتتاً كما شعرت أن العالم انهار ووقع في العدم. وهذا الحدس الذي ما توصلت لتبديده، وهو أن مهما كانت نتيجة الهجمتين فقد ضعنا وأن هذه اللحظة ما هي سوى بداية النهاية.

لم أكن أعرف ماذا نفقد ولا ما الذي سيبدأ. كنت أفكر بالرهائن، يبدو أن اليوم لا يلتمس نهاية ممكنة. ومع ذلك انتهى، كسائر الأمسيات انتهى اليوم. كسائر الأمسيات، صعدت إلى الحمام ونظفت أسناني وأزلت مكياجي وذهبت للفراش.

أما بالنسبة لأولئك الذين جاؤوا صبيحة هذا اليوم ليشتروا حوائجهم، فحسبما نقل، إن الحياة توقفت بغتة في متجر باب فانسن.

يجب أن أستعيد شعور الفرح الداخلي الذي فقدته منذ تخلل ضجيج العالم في خلايا جسدي. مساء يوم الأربعاء الواقع في ١٤ كانون الثاني، التقيت مع صديقتي س. في مسرح «لاكولين» أشعر أن وحدة العالم تشظت وأن إحدى شظاياها اخترقت حدود جسدي. تلقت س. مع مطلع كانون الثاني، بطاقتَي دعوة لحضور بلاتونوف وعرضت عليَّ الحضور برفقتها لكن ربما سابقاً كنت أحلم، ربما سابقاً لم يكن هناك كذلك وحدة العالم لعلها مجرد وهم أو سراب، لكن بالنسبة لي منذ الأربعاء ٧ كانون الثاني تشظى العالم وزحف عنفه في مسامي كثعبان قاتل صامت. بلاتونوف مسرحية لتشيخوف، كتبها بعمر الثامنة عشرة وهي تخاطب عمر الشباب كما يقال، ومنذ ذلك اليوم والثعبان ما فارقني بل يتابع زحفه في داخلي ويتقدم بهدوء يعيث خراباً في جسدي من الداخل. كلمت ج. بما يراودني فبدا عليه الأسف وقال لي يجب أن أهدّئ من روعي وأحتفظ بالبعد جالسة على الأريكة. قلت لـ س. أن لا شيء قد ينفعني بقدر الذهاب للمسرح تلك الأمسية، أتعطش للكلمات، أتعطش للجمال، أتعطش للمعنى. عن أيّ بعد يتكلم فليقولوا لي عن أيّ بعد، يجب أن نتكلم، يجب أن أستعيد شعور الفرح الداخلي، يجب العثور على الفرح الداخلي فمنذ أن سمعت صفارات الإنذار تعوي في الطريق يوم السابع من كانون

الثاني والغم يجتاحني وأطرد الصور التي تهاجمني للتوّ، استدارت س. نحوي وقالت لي إنها تشعر بالشعور نفسه تماماً، أتعلمين، صور الهجمات المرعبة، أطرد الصور، أطرد الصور بلى أنا أشاطرك الإحساس، أتعلمين، بلاتونوف مسرحية لطالما اعتقد بأنها مفقودة ولكن عثر على واحدة احتفظ بها في صندوق البنك ونسيت، هناك شيء من الغباء في قصة صندوق البنك. كما أطرد الصورة الأخرى، الواقعية، هذه الصورة محفورة في جسدي حين عادت والدتي من إحدى آخر جلسات العلاج بالأشعة. ابتسمت لـ س. وفي هذه اللحظة أطبق الظلام في الصالة وترددت أوائل العبارات وسمعت تنهيدة طويلة خرجت من صدري، والدتي واقفة على الرصيف وترمقني بنظرة تغص بالغم قبل أن تصعد إلى سيارة الإسعاف، نظرة طفل مرعوب لن أنساها ما حييت وتعود لتهاجمني للحظات وتلويني من الداخل، يحدث لكم ذلك، يصيبكم أحياناً، لاحظت أن ظهري بدأ يؤلمني. ظهري وكتفاي ومؤخرتي تؤلمني وتتشنج. تغلق أبواب سيارة الإسعاف مبتلعة نظرة وجسد أمي وأنا أسير نحو المترو وقلبي ألف قطعة، يراودني الشعور نفسه تماماً. أتدرين كسائر مسرحيات تشيخوف «بلاتونوف» تصور عالماً مفككاً. مضت سنوات عدة على وفاة والدتي وما زلت لا أطيق سماع صفارة سيارة الإسعاف ولن أطيقه. منذ ثلاث أو أربع سنوات، كان الوضع أفضل، تمر سيارة الإسعاف وتدوّي وأنا أتابع التقدم والتحرك والكلام، كان بوسعي الاستمرار بالحياة. ها هم الممثلون أمام ناظري مليئين بالطاقة، أشاهدهم وأصغي إليهم ولكن مجدداً الآن لم أعد قادرة، فكل دويّ لصفارة الإنذار يحيي رعب يوم السابع من كانون الثاني والذعر الساكن في نظرة أمي، الثقب في نظرة أمي، اصطحبوني معهم، حملني الحزنان معهما لعالمهما في

آنٍ واحد وكأنهما وجدا فجأة لست أدري ما الحدث الغريب الذي يربطهما. جسداً عالماً مفككاً، يراودني إحساس أنهما يرقصان أمام عيني، يرقصان على الأنقاض منذ السابع من كانون الثاني، يتراءى لي أن هناك أكثر من ألف صفارة تدوّي وتعبر تحت نوافذي، يرقصان بينما ينهار ببطء كل ما حولهما وأنا وددت أن أولِّي مع الأنقاض، وددت على أرقص على أنقاضهما، أن أرقص معهما هناك. يبدو لي أن هناك دون انقطاع ما لا انقطاع له. أخبروني إن سمعتوها ألف مرة أكثر من السابق، قولوا لي هل هناك أكثر بكثير أم إنني جننت وأنا من أسمعهما وأخترعهما داخل ذهني وفي جسدي. يجب أن ألاقي شعور الفرح الداخلي وفي كل مرة يراودني إحساس أنني وقعت، ألف قطعة وقعت في داخلي، انهرت. يجب العثور على شعور الفرح الداخلي، أشعر أن طاقتهما تسيل تحت جلدي وتشع داخلي، تشع في جسدي الذي لم يعد يعرف كيف يحمي نفسه من دويّ صفارات الإنذار، لم يعد جسدي قادراً على حفظ الحدود بيني وبين العالم. تزداد حرارة جسدي وحرارة قلبي. احتجت وقتاً طويلاً لأتعلم كيف أعيش مع جسد ذي مسام. تساءلت ترى هل المشاهدون بقربي وخلفي وأمامي يراودهم الإحساس نفسه؟ هل شعروا أن هناك من يمسك بذراعهم ليشدهم برفق فيرقصوا مجدداً بلطف خطوة بخطوة، يعيدهم للرقص ويعيدهم للحياة. هل يعود جسدي كالسابق، هل يلاقي حدوده حتى حين ينتهي كل شيء وتضاء الأنوار في الصالة وبعد التصفيق الحار. نهضت أنا وس. ونزلنا الأدراج ببطء نحو قاعة الدخول للمسرح. ما عدت أشعر بما راودني منذ سبعة أيام، ذاك الإحساس بحقل الأنقاض من حولي وداخلي. إحساس الانحلال الذي خنقني. أشعر تماماً بالشعور ذاته أتدري أو ربما عليّ قبول فكرة أنني فقدت شيئاً ما إلى

الأبد، عليَّ أن أقبل بأنني فقدت شعوري بوحدة العالم إلى الأبد، لعل مشاهدتي لمسرحية بلاتونوف لثلاث ساعات متواصلة حرر هذه المعجزة، مشاهدة بلاتونوف لثلاث ساعات جعل شيئاً ما ينبثق من خضم هذه الأيام المحترقة المجنونة، هل عليَّ أن أرضى بأنني فقدت الإحساس بحدود جسدي للأبد. فكرت تلك الأمسية، بعد سبعة أيام من مجزرة شارلي إيبدو حين يتفتت كل شيء من حولك يبقى «هذا»، هذا الذي يواجه الهمجية دون أن يستسلم، ولا ينفجر. عليَّ أن أقبل بأنني فقدت يقين العالم إلى الأبد، إذا قلت في سرّي لعلنا ما فقدنا كل شيء ولعلنا سنعرف كيف نجد، بيوم قريب أو بعيد، في أحشائنا هنا بالضبط تحت جلدنا شيئاً ما كشعلة ملتهبة، كل ما فقدنا منذ سبعة أيام، الشعور بالفرح الداخلي.

أيّ صدفة مؤلمة هذه التي ما انفكت منذ عدة أسابيع تكبر، تهديدان في حياتي بشكل متوازٍ: الأول، التهديد الإرهابي الذي أتشاركه مع كل شيء وخاصة العالم من حولي، والآخر فقدان منزلي الحميم وهو أمر يدعو للسخرية بالمقارنة مع السبب الأول الذي يعجز اللسان عن وصفه؟ سخرية فهي بشكل أو بآخر ما كلفت لحم أحد ولا تتعلق سوى بي وما مسّت وجودي المادي، رغم ذلك أيقنت كم لها أن تفقدني ذاتي من جهة وجسدي الداخلي من جهة أخرى. أجل، ما الذي جرى حتى ظهر هذان التهديدان في آنٍ واحد في حياتي ويصرخان كشقيقتين توأم تتحدثان من خلف ظهري وتهاجماني كوجهين لحقيقة واحدة، يكبر التهديدان معاً فترتجف أطر حياتي وعالمي؟ من الخارج والداخل، يعلو الصراخ، ترتعد فرائصي، تنشرخ قواعدي.

يعذبني للحظات علمي بأنني سأنجب خلال بضعة أشهر كائناً صغيراً أرميه كليّاً في عوالمي المحطمة.

كانت والدتي تعشق النباتات. احتفظت من خلال دراستها لعلم الصيدلة بمعرفة دقيقة جدّاً عن علم النبات. كما كانت تذكر لنا حين نتنزه معاً، الاسم اللاتيني لبعض النباتات والأشجار. لم يحصل جدي على رخصة بناء الطابق الأرضي بسرعة ودام ذلك سنوات عدة. كان «الأسفل» بالنسبة لنا نحن الأطفال المملكة الساحرة، وهو عبارة عن مستطيل واسع تخترقه أعمدة من الإسمنت حيث نمضي الوقت باللعب والركض والاختباء. حولت والدتي أحد الجوانب لبستان داخلي واسع حيث تنمو أنواع مختلفة من النباتات المتوسطية المترفة نسيت اسمها لكنني ما زلت أذكر ألوانها وأشكالها الغريبة وندرتها. أولت جدتي بعد وفاة جدي عنايتها للنباتات حتى وفاتها بعد عشر سنوات، كانت هي من تقرر ما تزرع وتعتني بما يدوم طيلة السنة. كانت تحب نبتة المجنونة التي نمت على طول جدار المنزل ولطالما كانت تتأملها. آخر نبتة حاولت زرعها قبل أن يغلبها المرض هي المنغولية على امتداد العشب. في الأشهر الأخيرة من حياتها، كانت هذه الشجرة مصب اهتمامها الدؤوب والقلق. اختارت بنفسها مصدرها وطلبت عدة مرات الجنائني ليتأكد من أنه أحسن زراعتها ويعمل على أن تنمو جيداً. بعد ظهيرة أحد الأيام، كنت معها وكانت ضعيفة جدّاً راقدة في غرفتها في باريس، حدثتني عن نبتة المجنونة وطلبت مني تكراراً ومراراً أن أعتني بها. يشغلها مصيرها وتخشى ألّا نوليها ما يكفي من اهتمام بعد أن يتغمدها الموت.

اليوم، أصبحت نبتة المجنونة خلابة. أوراقها كالثريا وتزهر منذ شهر شباط، فهو شهر لطيف هناك. كلما مررت أمامها، أذكر والدتي.

منذ عدة أسابيع كما كانت والدتي تذكر والدتها، إنها تتملكني. من سيعتني بها بعد رحيلنا؟ من سيعرف أن نبتة المجنونة كانت لجدتي، وأنها التي بثت السعادة في أسابيعها الأخيرة؟ كيف سألاقي في حياتي أجمل الآثار الحية لوالدتي؟

مرت أسابيع وأشهر. يبدو أن من حولي باتوا قلّما يتحدثون عن الأمر. هل لأنهم لا يعرفون تسميته؟ أم لأنه كان هائلاً ومرعباً لدرجة نعجز أن نحدده بالكلمات؟ هل يوحي لنا الأمل العابث بأن نلوي هامتنا للخوف معتقدين أن بوسعنا استعادة إيقاع حياتنا المعتاد؟ كأن يقول البعض: «أحداث كانون الثاني». والبعض الآخر يقول: «ما حدث في كانون الثاني». وآخرون يعبرون باستخدام تورية مثل: «مع بداية العام الشديدة القسوة...». ثم يصمتون وينتقلون لموضوع آخر. ندور حول الموضوع فما من كلمات تصف ما حدث، كل ما حدث. كل ما تغير.

في المترو والمحطات والمطار تتجول دوريات عساكر بأيديهم سلاح. في كل مرة أصادفهم، يبدو لي الأمر جنونيّاً. كأننا في حرب، كأننا في حرب. ما هي هذه الحرب الغريبة والصامتة والمختلفة عن كل ما تعلمناه في الكتب المدرسية؟ ما هي هذه الحرب التي لا تفصح عن اسمها؟ ولا تقول هي حرب ضد من؟ ولا متى بدأت؟ لا أستطيع أن أعتاد عليها. أنظر إلى الوجوه من حولي، يتابع الناس سيرهم ولا يبدون شيئاً ولا يعبرون عن شيء. أتساءل ترى هل يقرؤون الدهشة

على وجهي؟ أما أنا أيضاً ودون أن أدري أخفيتها. ربما كان الجميع كذلك، من الخارج يبدو وجه هادئ ومن الداخل الدهشة. بالقرب من منزلي، أعلن أن شارع المخفر مغلق للسيارات وأقيمت حواجز في كل جانب. أمام المدرسة الابتدائية التي ترتادها ابنتي، تمّ اتخاذ إجراءات حماية جديدة. في المترو، تكرر التحذير من طرد مثير للشبهة فتتوقف القطارات ويتردد صوت المكبرات: «تتوقف حركة القطارات على الخط بسبب طرد مثير للشبهة». ينزل الناس من المقطورة ويتجهون لخطوط أخرى. أنظر إليهم، لا يقولون شيئاً ولا يعبرون عن شيء ولا يحتجون ولا يحبطون، لا يقولون شيئاً.

في الراديو والتلفاز والصحف، سمعنا وقرأنا مراراً هذه العبارة التالية: «لا بد من التهيؤ لهجمات أخرى، فرنسا في حالة طوارئ قصوى». أهكذا يتغير شيء ما في البلد حتى تركيبة الهواء ويتبدل وينقلب بصمت؟ أهكذا نستقبله دون أن نقول كلمة، نحني الهامات؟

ما عاد ذلك يفارقني. ما عرفت تحديد ما وراء كلمة «ذلك»: مزيج من الخوف والغثيان وشعور الفوضى والعالم المجزأ. يعيش كثير من المسلمين بالقرب من سكني. كتبت جملة لو مرّ عام أيضاً لما كتبتها. مضت سنوات وبجواري يسكن مسلمون وما قلت أبداً إنهم مسلمون، وما كنت لأطلق عليهم هذا الوصف، إنهم رجال ونساء، يبدو دينهم ببعض العلامات الفارقة ولكن كنت أجده أمراً خاصّاً بهم. كنت أرى الحجاب والجلباب وما توقفت يوماً عنده، كانوا بنظري شفافين. ما يهم وما أشعر به هو النظرة والكلام والابتسامة. ما زلت أفكر ترى بماذا يفكرون وبماذا يشعرون. أصادف أحياناً في الحافلة أو في الطريق أو لدى البقال نظرة امرأة مسلمة تحط عليَّ بشيء من الخزي، كما يبدو لي. أنا من كان الخزي يلاحقني ولكن ممَّ الخزي؟ أن أتخيل

أنني أقرأ الخزي بنظرة امرأة لا أعرفها، الخزي بأن أخترع ربما هذا الشعور؟ أن أقرأ أنها تحمل وزر جنون غيرها وأن تضع نفسها بموقف الخزي أمامي؟ لمَ تلك النظرة المليئة بالخزي دون أن أنبس بكلمة؟ إنه أمر لا يمكن تعريفه. حدث بيني وبين تلك المرأة، حدث دون كلمات، حدث بلحظات وترك في قلبي لدغة وغصة. فتت شيئاً في داخلي وكسر العالم أكثر. عند آخرين أو أخريات أقرأ أحياناً تعبيراً عن التحدي يثير فيَّ الغثيان لآخر اليوم. إلا إذا كنت مخطئة أيضاً وأنسج خيالات. بصريح العبارة، لم أعد أعرف، حاولت ألا أقرأ شيئاً أبداً. إنها المرة الأولى في حياتي أتوقف مطولاً عند علامات الدين الخارجية. إنها المرة الأولى التي يوجهون لي الأسئلة، يوجهون الأسئلة بعنف. حضرت مشادة كلامية في الحافلة حيث صاح رجل للحظات طويلة قائلاً إن اليهود نالوا ما يستحقون. حين نزل من الحافلة أردفت امرأة قائلة بأنه ليس بمجنون ولو فكرنا مليّاً لعرفنا أنه محق. حدقت بها إنها شابة وجميلة ونظرتها حادة. منذ ذلك الحين، ما عدت أنسى.

«لا بد أن نتهيأ لـ»

أنا أتهيأ، منذ ذلك الحين وأنا أهيئ نفسي. لماذا لست أدري بالضبط. أتهيأ أن يحدث خطب ما، خطب لا أعرف محتواه ولا محيطه. شيء أشعر أنه يفوق كل ما عرفته حتى الآن. يبدو لي هذا التهديد واقعيّاً وخياليّاً في آنٍ واحد وهذا ما يجعله مرعباً جدّاً. أعجز عن تسميته. لا أعرف كيفية مشاركته. كتلة مطموسة المعالم سديمية أمامي، حولي. لست أدري في أيّ لحظة سأرتطم بها. لست أدري حقيقة إذا ما كنت قد بدأت الارتطام. عندما أكون في الشارع تتملكني الفكرة وأقول في سرّي إن كل شيء يمكن أن ينفجر بثانية. في المترو، يتملكني ذعر غير مبرر حين أرى شخصاً ما يدخل وعلى

ظهره حقيبة. منعت ابنتيَّ من الذهاب للمحلات الضخمة كما منعتهن من التنزه بالقرب من الأماكن السياحية.

اقتحم ما لا يمكن التنبؤ به حياتنا.

أجهل إن كان الأمر سيان لدى الآخرين وهل ينتابهم الخوف أيضاً وإن كان ذويّ صفارات الإنذار يثير جنونهم، وهل يلحظون حقيبات الظهر للتوّ حين يستقلون المواصلات العامة؟ وهل غيروا خط سيرهم المعتاد. أجهل إن كانت المجزرتان تستحوذان عليهم، وهل تبث فيهم هذه الفكرة الإحساس بالوقوع في داخلهم، يتكسر فيهم أم هي أنا من استولى عليها الخوف والشعور بالانحلال فما عادت تعرف أن ترى العالم كما هو. ربما بالنسبة لأغلب الناس في فرنسا، استعادت الحياة نظامها العادي وهم عادوا ليعيشوا كالسابق وكأن ما حدث من الماضي جزء خارج عنهم لم يعد يمسهم ولا يمت لهم بصلة، ولا لجسدهم ولا لوجودهم. ما عاد هناك مكان يشغلهم، وليالي سهر، وتتبع النهار. ربما يجب قبول العيش في بلد معين وبلحظة معينة ويتقن كيفية إدخال كل الأحداث التي تحدث مهما كانت حميمة أو خارجية، صغيرة أو ضخمة وألا يتوقف عنده ويتجمد عندها ويتسمر، كما فعلت أنا منذ أسابيع مضت وأنا عاجزة عن هضم أيّ شيء من ذلك الذي قلب كل ما بداخلي بمروره، وعاجزة عن الانتقال لشيء آخر، تلك العبارة التي كثيراً ما سمعتها منذ سنوات. كم مرة قالوا لي والحزن يغلبهم: «اسمعي، يجب أن تنتقلي لشيء آخر الآن، توفيت والدتك ولا يمكننا تغيير شيء هذه هي الحياة، كفّي عن البكاء وانتقلي لشيء آخر». «اسمعي، سنبيع المنزل، لا يمكننا فعل شيء آخر، جددي مشاريع وحدقي بالمستقبل، انتقلي لشيء آخر، يجب أن تعرفي كيف تتقدمين للأمام».

هل تكمن مشكلتي أنني أعجز تحديداً بالانتقال لشيء آخر دائماً؟ كنت أودّ أن أحفظ بكل ما أوتيت من قوة وأضع جسدي وقلبي وصوتي بحثاً عما يمضي دون ضجيج ويختفي دون دوامة في البحر. وددت ألا يغطي الزمن كل شيء ويحمل معه كل شيء، كل اللحظات حتى الصغيرة والسخيفة تلك التي عشناها منذ الأزل.

كنت بحاجة لعلامات. وددت أن أفهم. أن أفهم ماذا؟ لا أدري. لكن أظن في أعماقي ما كنت أرغب بفهمه تحديداً هو أن أفهم ما لا أعرف ما كان عليَّ فهمه. وصف ما جرى في كانون الثاني بالكلمات، وصف ما لا أكفّ عن الإحساس به بكلمة. يبدو لي أنني فقدت شيئاً ما ، فقدته للأبد. وفي لحظات أخرى، يبدو لي أنني طردت من العالم الذي طالما سكنته.

كلما اقتربت العطلة، فكرت به. طيلة يومي وأنا أفكر به. رائحة السرو وصرير خطواتنا على ممر الحصى. جدتي التي ترشني بخرطوم الماء أنا وأختي في حوض صغير لدى قدومنا من باريس في الصيف بحالة يرثى لها بعد عشر ساعات بسيارة نوافذها مغلقة. يجب ألا نفتح النوافذ لئلا يضرنا مجرى الهواء. الشمس حمراء ملتهبة في مساء يبدو أكثر عتمة حين نراقبه من الشرفة العالية. عبق الورد الجوري في المدخل وجسدي الناعس المثقل بحرارة المرج. السحالي الهاربة بسرعة على الجدران البيض.

البرقوق الأخضر الذي كنت أقطفه مع أختي ثم نلتهمه سرّاً تحت الشجرة وعصيره يتقطر على ذقننا ونقول بعدها لوالدتي دون أن نرمش: «كلا، كلا أؤكد لك ما أكلنا هذه المرة فقط ذقنا واحدة». والدتي جالسة على العشب أظافرها مطلية باللون الأحمر وترتدي فستاناً صيفيّاً. تتمدد الهرة السوداء والبيضاء البرية بجواري وتركض على أعلى السور. موائد جدتي وصوتها الفرح والطريقة التي كانت تضمني بها بشدة. المنديل الكبير الأبيض المعقود حول رقبة جدي حين يتناول الحساء من دون كلام، يتنفس وهو يمتص مصدراً صوتاً يثير ضحكي أنا وأختي بلطف.

والبحر وضجيج الأمواج الهادئ وجسدي بين يدي تلك الأمواج

اللطيفة يدور ويدور ويقفز على الفرشة المائية التي أهدانا إياها والدي، واحدة جديدة هذا الصيف لأن القديمة ثقبت.

طيلة اليوم وأنا أفكر به. تنير أيامي الباريسية بنور أبقيه سريّاً اقتربت العطلة في نيس وأنا بانتظارها. اليوم أيضاً وأنا أكتب هذه السطور، أنتظر شهر شباط. سأذهب لأمضي أسبوعاً في المنزل. ستكون المرة الأخيرة التي سأراه في هذا الفصل، ستكون أزهار المنغوليا والميموزا قد تفتحت. أما الفاكهة فتتدلى من أشجار الليمون والبرتقال والكرمنتينا ونحن نقطف منها كل يوم.

خارج جدران المنزل تستمر الحياة مع مرور الوقت، تتغير وتواجه انقطاعات وإخفاقات وتقدم. إلا أن العودة في كل فصل منذ الطفولة إلى المنزل ومعرفة ماذا سأجد فيه، ما سأجد حتماً يبث فيَّ سلاماً هائلاً، مهما جرى في حياتي حتى الأحداث الأكثر إيلاماً، هناك أستعيد شعوري بأن كل شيء على حاله، لم يمسسه بشر ولم تطله الحياة ولم تشوهه.

ما زلت أذكر عودتي إلى المنزل بعد عدة أسابيع من وفاة والدتي، فتحت البوابة البيضاء الصغيرة ولاقيت أشجار السرو تسود منتصبة نحو السماء. تقدمت ورننت الجرس وفتحت الباب الزجاجي من الأسفل. تغسل الشمس القاعة الكبيرة ويسود الصمت والجمال كما دائماً. شعرت بعذوبة متناهية وسلام متناهٍ وبقيت ممنوعة عن الدخول فالحطام الحميمي بدا متشبثاً خارج الجدران البيض.

كنت أعرف أن التهديد الذي يعوي من بعيد ويقترب كل أسبوع، يغطي هذه الحقيقة أيضاً: فقدان المنزل لا يعني فقدان مهد ذكرياتي الجميلة وجذوري وحاضري فحسب، بل هو فقدان العنصر الوحيد الذي يهديني متعة الديمومة في حياتي.

«يا أطفال علينا أن ننظم أنفسنا لتفريغ المنزل. هناك الكثير من الخردة، سيحتاج ذلك وقتاً». هناك عبارات تحيل التهديد حتميّاً، بات أكثر صعوبة دفعه أبعد ما يمكن. بيد أن شيئاً ما داخلي يصرّ على إبقاء مسافة أيضاً وأيضاً. غير معقول، أقول في سرّي، لا بدّ أن تحدث معجزة في اللحظة الأخيرة ولا نبيعه.

أفكر دونما انقطاع بها، بيديها، بجسدها الأبيض. أحاول أن أتخيل ماذا كانت الحياة من دونها، ماذا كان ليحدث في رأسي وفي جسدي وفي قلبي. أغمضت عيني فشعرت أن الأرض الصلبة تنفتح من تحتي وأنا أقع أختلط بما أشعر تجاه العالم الحالي، التجزيء والشعور نفسه بالانحلال وفقدان التوازن.

في حالة كمثيلاتها، أصيب جسدي بشكل غير مرئي، لا أتخيل نفسي من بين ضحايا هجمات كانون الثاني، ومع ذلك ينتابني شعور أن أحيا بجسد مسامي، جسد لا يمكنه وضع حدود ما بين الداخل والخارج، وكأن الرعب والخطب الجلل قد امتصا تلك الحدود فضلاً عن استحالة إطلاق اسم عليها أو فهمها أو حصرها. جسدي يشعر بالاعتداء وينهض مبتلّاً بالليل عرقاً جراء منام فيه رجال يحاولون اقتحام باب المنزل. جسدي المبعثر والمتفجر مترامٍ هنا وهناك، في

مقرات شارلي إيبدو وفي أحد شوارع مونتروج وهايير ماركت فانسن. جسدي لي وجسد كل من شاؤوا حذفهم. فكرة بيع المنزل أصابت ما أدعوه جسدي الداخلي، هيكلي العظمي الداخلي هو بصريح العبارة ما يدعمني فهو ما يضمن توازني. أجل في حالة كمثيلاتها، راودني شعور أن إصابتي خفية عن عيون الناس.

بات من الصعب أيضاً أن أتشارك مع الناس ما يعكسه جسدي في خلال هذه الأسابيع وهي حقيقة الأمومة المرموقة، يحدثونني عن طفلي الآتي فكيف لي أن أتحدث عن إحساسي بالتآكل؟ كيف يمكنني أن أشاركهم تلك الحقيقتين اللتين تسكناني الأمومة وجسدي المصاب من الداخل؟ أنا شخصيّاً بصريح العبارة ما توصلت لجمعهما. ما فهمت كيف تتعايش داخلي حقيقتي الانحلال والحياة. هذا واقعي، لكنه واقع معقد جدّاً بالنسبة لي، لست أدري كيف لي أن أحتويه وأتقبله كاملاً ولا حتى ماذا أدعوه.

تبادرت إلى ذهني كلمة ما فكرت فيها مطلقاً: «لجوء». اكتشفتها مجدداً ولفظتها بصوت منخفض ووجدتها رائعة. تساءلت ترى هل يطمح الجميع في حياتنا للعثور على ملاذ. ما الذي يطلق العنان لهذه الحاجة بلحظة ما في الوجود؟ اللجوء لا يعني بالضرورة فكرة الهروب من شيء ما وترك هذا الشيء خارج اللجوء؟ ما هو الهروب بالنسبة لكل منا؟

ماذا تركت في كل مرة بجانب الجدران البيض لمنزل نيس منذ الطفولة؟ ممَّ كنت أهرب؟

ترى هل الملاذ بالضرورة مكان أو قد يكون شيئاً آخر لكن ما هو؟ ما تراه هذا الشيء الآخر الذي لا يفسد ويدوم مهما جرى في من حولنا

ومهما جرى داخلنا، يبقى كما هو؟ ألا تتبدل الأحاسيس والصور الذهنية والأحلام والذكريات والعلاقات مع الكائنات مع الزمن؟ ما الذي يبث فينا الحرارة ذاتها في كل مرة نلاقيه مهما طالت السنون؟

تساءلت ما الذي يعطي قيمة اللجوء: الإحساس بالسكينة والأمان؟ يبدو لي أكثر من ذلك، ربما قدرته على التعزية؟ أو ربما قدرته على تجميع الجسد والإحساس بالجسد؟ الانسجام المطلق والنادر ما بين الذهن والجسد وذاك الحبور العميق المنبثق؟

تلامس كلمة «اللجوء» في ذهني دائماً كلمة «لاجئ» والتي يبدو أنها ومنذ أشهر أثارت ما يتعاكس تماماً مع السكينة والعزاء. عادة ما يتم استخدامها ملتصقة بكلمة أخرى دخلت لغتنا دون أن تأخذ محطة واستخدمها الجميع دون اندهاش وكأن هذه الكلمة موجودة أبداً: «مهاجر»، صرنا نقول كلمة «مستوطن»، غيرنا الكلمة فغيرنا الإهاب. كانوا مهاجرين، ما كانوا في أيّ مكان، ما قطنوا داخل أيّ أراضٍ أو أيّ ملجأ. كانوا مهاجرين، يبتر جسدهم ما إن يأتي تعيينهم من احتمالٍ بسيط من أيّ كان في الداخل، كانوا مهاجرين في ذاك العري، لا يتأرجحون في شيء ولا يلجون في شيء. يبقون على الحافة، على العتبة. لا يمكنهم العبور نعم ولكن كلا، تغلق الحدود في كل مكان، الكل قلق في كل مكان، كرماء نعم ولكن هناك الكثير من الناس، كرماء نعم ولكن لا يجب أن نبالغ، كرماء نعم ولكن لا يمكننا أن نستقبلهم جميعاً، أسلاك شائكة نُصبت وحواجز فيتيه المهاجرون في الفضاء الذي فقد اسمه مثلهم. هؤلاء النسوة وهؤلاء الرجال وهؤلاء الأطفال، يطمح جميعهم للجوء. وكسائر كثير من الناس من حولي، تسكنني صورة ذاك الصبي الصغير الذي يبدو راقداً بسلام، ذاك الصبي الصغير الذي ذهب مع عائلته بحثاً عن ملاذ فارتمى ووجهه نحو الأرض،

وجهه على الرمال. ذهب بحثاً عن الملجأ يدفعه كأول سبب بقاء جسده والبقاء قبل كل شيء وما وجده. فشل، فشل وكل ما فيه فشل. ما عثر على أيّ ملاذ، بقي في الخارج، سيبقى في الخارج للأبد.

«لجوء». كلمة قد تضم حقائق مختلفة بعنف. أصر مع ذلك على لفظها بصوتٍ منخفض، وددت أن أحتفظ بجمالها الداخلي، رغم كل شيء ورغم الناس التي تتوافد إلى المخيمات. في مواجهة الكارثة، لا يجب أن يطوى اللسان، لا يجب أن يستسلم اللسان، على غير هذا المنوال، سيستلم كل شيء.

البيت والعالم، العالم والبيت. أذهب وأعود بشكل هيستيري دون هدف. راودني إحساس أنني معلقة بين عالم وعالمٍ آخر. أتأرجح بين عالمين يلازمني فيهما شعور الضياع. وددت أن أضع نهايةً لهذا التأرجح ووضع نهاية لهذا الفراغ.

شرعت بقراءة لقاءات مع كتّاب يواجهون التفجيرات يوميّاً في بلادهم: دافيد غروسمان، زيرويا شاليف، أهارون أبيلفيلد: قرأتهم بجنون وبهوس. أرغب بكلماتهم، أرغب أن أقرأ ماذا كتبوا عما تغير في حياتهم.

أهارون أبيلفيلد: أكتب عن الحرب. *أترون. ولدت داخلها وعمري ثلاثة وثمانون عاماً. خضت غمار الحرب طيلة حياتي.*

زيرويا شاليف: إنني أكثر قلقاً وأكثر وعياً لهشاشة الوجود. شرط الحياة هو «ما لا يمكن توقعه» بالطبع ولكن نتوصل لنسيانه عموماً. هنا، لا يمكننا. بعد التفجير وحين خرجت من المستشفى، تسمرت في غرفتي وشرعت بقراءة المقاطع (من الرواية التي كنت أكتبها لحظة

التفجير.) فلاحظت كم كنت منفصلة عن النص. شعرت أنني بعيدة عن كل ما يحدد ملامح هويتي حتى يوم التفجير بدءاً بالكتابة. كان تأثير الضربة مأساويّاً أكثر من الجراح الجسدية.

دافيد غروسمان: في هذه المنطقة، مهما كان القرار فهو ينوء تحت ثقل النتائج. يكفي أن تتورط بدربٍ سيئة أو حافلة سيئة حتى تقع في تفجير. كما لك أن تضرب موعداً في مقهى ما لَكنك اخترت آخر وعلى حين غرة علمت بأن تفجيراً إرهابيّاً ضرب المقهى حيث كنت ستضرب موعداً. أيّ حركة صغيرة قد تكون قاضية. هنا يجازف الناس بأقدارهم في كل لحظة.

زيرويا شاليف: غالباً ما يسألونني في الخارج: «ماذا تفعل لتكتب في إسرائيل ضمن كل ما يجري؟» وجوابي هو أن هذا الضغط يبقينا متيقظين...

أهارون أبيلفليد: ما عاد هناك من مركز، هناك جزءٌ للكل.

زيرويا شاليف: إبان تلك الفترة الطويلة للاسترداد، فكرت مليّاً بالوقت الذي بقي لي للحياة. ليس بوسعي أن أتخيل بعد أن أجد نفسي بغتة في أحضان الموت أن الحياة تعود لمجراها الطبيعي. ماذا يجب أن أغير في وجودي؟ هذا النوع من الأسئلة الذي أطرحه. لا بدّ من وجود شيء جديد. وددت أن أهب الحياة. وددت أن أحيا خلافاً لما عشته والذي يلامس السوء. رغبت بما هو جيد.

هل المقارنة ممكنة؟ كلا، بالطبع. الحياة في إسرائيل والحياة في باريس. رغم ذلك، ارتحت لقراءة هذه الكلمات. تمسكت بها وكنت مدينةً لها بوجودي. بعيداً عن حالة العنف الخارجية والتي لا يمكننا التنبؤ بها والتي تضرب صدفة وهم عليها شهود، أتاحوا لي بتسمية جزء

من رواسب الأحاسيس التي رزحت تحتها منذ أشهر والتي أصابت داخلي، منطقة أنا نفسي لا أصل إليها، تعرفت عليها وتمكنت أن أتزود منها وأنهشها. كانت مشاعل نور اخترقت عتمة الأيام. كانت كطرف حبلٍ ثمين، منفرد، يمكنني الإمساك به لعله يوصلني إلى مفرداتي أنا.

خلقت قراءة هذه الحوارات رابطاً بيني أنا التي أعيش في باريس وبين أولئك الذين يعيشون خارجاً، من أعرف بضعة من أعمالهم ولا أعرف شيئاً عن حياتهم. أخوةً صامتة. كان لهم أثر في نفسي.

في أحشائي، طفلي الذي ينمو، أشعر به يتحرك أكثر فأكثر. حين أضع يدي على بطني يجيبني دائماً تقريباً. يراودني إحساس أنه يشعر بكل شيء وربما هذا السبب الذي جعل ما يربطنا لا يتزعزع. ربما أنا مخطئة لعله هو من يمنحني هذه القوة لأشعر بالعالم.

أصغي يا عزيزتي، ستتحولين لحرباء لو بقيتِ هكذا تحت الشمس، الطقس حار جدّاً، وهذا يضر بالبشرة، احتمي بالظل! تعالي، سنجمع الكوسا، أحضري السلة الصغيرة من المطبخ. كلا، لا تأخذي سكيناً، لا بدّ من وجود واحد في البستان، وضعته على الجدار الصغير فوق النافورة. هلا حضرتِ لنا فطيرة الفلفل للمساء، تلك الفطيرة التي تحسنين تحضيرها؟ أوه لا لا، يا أطفال، قلت لكم إن هذه الريح ستثير جنوني، جنوني! أنشرب المليسة؟ من يذهب لقطاف بعض من أوراقها من الحديقة؟ يتكرر الشيء ذاته من كل عام، تبدأ العواصف. لكن يا أمي لقد زرعتِ كمّاً هائلاً من الفاصولياء هذا العام، كيف تريدين منا أن نأكل كل هذا، سينفجر بطننا! غداً، سأحضر الرافيولي، من يريد أن يأتي ليرى؟ لكن يجب أن تنهضوا باكراً، ها، الساعة السادسة والنصف أنا في المطبخ! قلت لك إن هذا الدراق أطيب من الآخر. من أين اشتريته؟ كيف وضعته في الثلاجة، فقدت مذاقها. كلا، انظر إليها إنها «تغرق بشبر من الماء». هيا، لا تبقَ متسمراً هنا، اذهب وأشر لها أين. حملت الشجرة كيلوات من البرقوق الأخضر سنتمكن من صنع المربى! أيها الأطفال، انظروا، يمكننا رؤية كورسيكا من شدة ريح الشمال هذا الصباح! ومن النادر جدّاً أن نراها. هنا، لا يمكننا القيام بشيء. أشعر أنني مجعد كالخروف من الرطوبة، يستحيل عليّ أن أمشط شعري!

يا لها من فتاة نحيلة، هذه الصغيرة، كم هي بيضاء! ألا تطعمونها في باريس؟ تعالي إلى هنا يا صغيرتي، هنا ستستعيدين وجنتيكِ الجميلتين. يمكننا أن نذهب لجزيرة ليران غداً لو رغبتم، هل يثير اهتمامكم الأمر يا أطفال؟ يجب أن نستقل القارب الساعة التاسعة والنصف وإلا لا يستحق العناء. أوه، تعالي وانظري يا أمي، إن السلحفاة تشرب من ماء المسبح! في الساعة نفسها تماماً جاءت بالأمس، إنه لأمرٌ غريب أن تعود كل مساء! أتظن أنها هي نفسها؟ يا لهذا اليوم الرائع ويا له من يوم رائع! أرأيتم كم كبر الأرز؟ سأقول لكم حين كنتم صغاراً كنا نعلق عليها كرة وزينة عيد الميلاد! في هذا المنزل، أخشى أن يفوت الأوان. يجب أن نولي الحديقة الاهتمام، فالعشب ييبس سريعاً في الصيف، يحتاج للسقاية بغزارة. فكروا بنبتة المنغوليا، ما زالت هشة، لا تنسوا؟

ما زلت أسمع أصواتهم حتى الآن. كأن الزمن يقترب والماضي يرغب أن يقفز للمسرح قفزة نهائية.

أتحسس دربي باحثةً عن النور لينبثق المعنى، وددت أن أعثر على العالم الذي سبق يوم الأربعاء السابع من كانون الثاني الساعة الثانية عشرة وعشر دقائق، اللحظة التي علمت فيها أن خطباً جللاً ضرب وأن العالم الذي كنا نعيش فيه قد تأرجح أمام عالم يقتحم فيه رجلان مبنى ويرتقيان الأدراج ويبيدان بالكلاشينكوف فريق التحرير. العالم قبل مساء أيلول حين علمت بعد أن أنهيت تناول طعام العشاء مع والدي وأخي وأختي بلحظة تناول الحلوى تحديداً، وكانت موس الشوكولا الذي أعددته مساء أمس وفي قلبي غصة، أننا سنضطر لبيع منزل الطفولة. وددت محو الألمين، أن أخفيهما، أن أرميهما في العدم. أرغب أن أعثر على العالم سابقاً، عالم يبقى. لذلك ومنذ الثامن من كانون الثاني، أجلس كل صباح إلى طاولتي وأحاول أن أشق طريقاً عبر الكلمات. فشلي في إلغاء هذين الألمين صفحة بعد صفحة جعلني أفهم بشكل أفضل وببطء، ببطءٍ شديد ولكن أبدي أنه لا يمكن مسح أيٍّ من تلك الحقيقتين وأنني لن أعود أبداً لما قبل السابع من كانون الثاني الساعة الثانية عشرة وعشر دقائق ظهراً ولا ما قبل مساء أيلول. إنه دربٌ طويلٌ، طويلٌ جدّاً ألج من خلاله سطراً بعد سطر في حقيقة هذين الألمين التي تفوق الخيال والتي ما انفكت تحطمني منذ عدة أسابيع، لكن من الآن فصاعداً بدأت ألامسهما وأمسكهما وأدعكهما حتى شممت مادتهما

المجمدة والصامتة على بشرتي. مادةً ما كنت أعرفها، صمتاً ما عهدته من قبل. ماذا سأفعل بهما الآن وإلى أين سأحملهما؟

تردد داخلي صدى غريب في أواخر بعد ظهر اليوم. كنت مدعوة في جنوب فرنسا للقاءٍ في منزل متخصص بالأطفال والمراهقين والراشدين. تحدثت منذ أسبوع أمام جمهورٍ من أشخاصٍ معاقين وآخرين طبيعيين كما يقال. كان الطقس لطيفاً، لمحت عبر النافذة الأشجار الرائعة ذات الأوراق الواسعة الحامية فخطرت لي النزهة التي كنا نقوم بها في الغابة. كنت أرغب برائحة الرطوبة ورائحة الأشجار المتشابكة والسرخس، عبق الحياة. أرغب بالتمدد على الطحالب وأداعب بطني لأمد طفلي أيضاً بقوة الغابة. أشعر بإصغاء الجمهور المركز والحساس مما مدني بشيءٍ من السلام ونوع من السعادة الصامتة. كنت على ما يرام وكل شيء على ما يرام.

بماذا يتعلق ذلك؟ حفيفٌ متناهٍ وإحساسٌ يوحي أن شيئاً ما قد تبدل بشكلٍ طفيفٍ وأن النور لم يعد كما هو؟ هل هي لحظة كلل؟ بدا لي أن حجاباً ما قدٌ تمزق وأنني اكتشفت فجأة المشهد الحقيقي الذي كان أمام عيني. تمكنت أخيراً أن أرى بوضوح مخترقة بغتة الألم الكبير الذي يكابده أولئك الواقفون أمامي والذين جهدت ومنذ بداية اللقاء لأقرأ على وجوههم وأجسادهم شيئاً من الحبور الداخلي. تصلني تأوهات شابة بانتظام (ترى منذ متى تتأوه؟ كيف ما سمعتها من قبل؟) بجانبها تقف ممرضة تحاول تخفيف ألمها بمداعبة جبينها بلطف بينما، وما إن رفعت بصري حتى وقع نظري على امرأة أخرى تجلس على كرسي متحرك، جسدها مشوّه ووجهها نحو السماء عاجزة عن تثبيت أيّ شيء. أجل قفز بوجهي ألمهم الجسدي والعقلي الهائل، حاولت أن أشيح بوجهي نحو الأشجار خلف النافذة لكنني عجزت أن أجد إحساسي بالهدوء

ولكن بالعكس أعطتني أوراق الشجر شعوراً بأن تهديداً خفيّاً يحوم مما أرعبني بغتة، لماذا وددتُ منذ وطئتُ هذه الصالة ألا أكشف سوى الهدوء والسلام الداخلي بينما يسود كل هذا الألم بصورة جلية رغم أن الطاقم المعتني بهم يبدون السخاء بأقصى حدوده؟ كيف ما رأيتُ الأشياء بالوجه؟ كيف يحدث أن يشوه النظر ما يكون أمامنا حتى منكراً الحقيقة باحثاً عن المعنى مهما كلف الأمر ويصر على إيجاد النور بينما يكون الواقع أحياناً شاحباً وأصمّ لا معنى ولا نور فيه؟

ماذا نرى في الحقيقة من العالم ومن عوالمنا الحميمية؟ خطر لي تلك الكأس التي يصنعونها وفي داخلها تتالى طبقات رقيقة من البلاستيك تشبه حلوى الألف ورقة. بوقع صدمةٍ ما يتكسر الزجاج لكنه يبقى متماسكاً برقائق البلاستيك. آلاف القطع متشققة ومتصدعة في كل مكان لكنها متماسكة. قاطعت نفسي وابتسمت.

مرَّ على هذا اليوم الخريفي عدة أشهر. قبل السابع من كانون الثاني في زمانٍ آخر. ماذا سأفعل بالمادة الصامتة التي أمسكها بين يدي؟ هل عليَّ أن أمنحه معنى وأحيله مضيئاً؟ هل عليَّ أن أحمله إلى مكانٍ ما؟

أم إن الحقيقة، الحقيقة الصادقة لا تقوم على قبول ومعرفة سوى ما له معنى وبالواقع لا يمكن العثور عليه في كل مكان، وهذه المرة أيضاً لا معنى ولن يحمل معنى؟ تعرفت على حزني الحميمي الواسع وهو خسارتي لمنزل الطفولة وتعرفت على حزن العالم الواسع وهو خسارته لوحدته، امتزج الحزنان داخلي ربما بعبثية أو ربما بشكلٍ غير لائق كبحرٍ أسود هادئ يبسط بحراً دون سماء نحو الأفق. أن تعرف ذاتك لا عزاء له وقبول الخسارة كأننا نتمدد على الأرض تاركين الليل يغطينا ببطءٍ لتتملكنا عذوبة لا نهاية لها تلوي الصراع وأخيراً لا صراع.

ما كان فقط مكاناً للماضي حيث رغبت أن أحتفظ منه بأثر، بل كان أيضاً الحاضر السعيد. ففي هذا المنزل تعلمت مجدداً أن أحب اللحظة بعد الانهيار الداخلي الذي كابدته بوفاة والدتي. كنت أدعو إليه أصدقائي كل صيف منذ أكثر من عشر سنوات. كنت أحب أن يضجّ منزل لاسيبيل بالأصوات والأجساد والضحكات وأن يركض فيه الأطفال ويختبئون فيه ويمرحون كما كنت أركض أنا وأختبئ وأمـرح، كم أحببت ولائـم الصيف الكبيرة بظلال شجرة التوت وصرخات الفرح حين يطهو أحدٌ منا وجبة شهية بامتياز وخمول أجسادنا الناعسة وقت القيلولة وتلك الخدرة التي تفارقنا رويداً رويداً حين ينهض أحدنا متراخياً ثم ينزل ليحضر مغلي المليسة لنشربه مع قطعةٍ من «المنى» وهي حلوى بزهر البرتقال من المطبخ الجزائري والمرح الذي يتملكنا بالمقبلات والكوكتيلات التي يحضرها صديقي «ب» فتنتشل تنهدات النشوة والمشاهد المرتجلة التي يمثلها الأطفال على المرج فنصفق لهم دون انقطاع وانتظار جمرات الشواء لنشوي ضلوع الثور والثمل المرح مساءً والأحاديث لوقتٍ متأخرٍ من الليل العذب وأصواتنا التي تخفت مع مرور الوقت وكأنها تتناغم مع إيقاع الصمت الذي يزداد عمقاً بدوره. ما شعرنا أبداً بتناغم المكان الذي نجتاحه ونسمع فيه كل عام الكلمات ذاتها». أوه كم نشعر بالراحة هنا،

هذا المنزل جنةٌ صغيرة وسنعود العام القادم؟ حتى بالنسبة لأصدقائي الذين لا تربطهم أية ذكرى بهذا المكان، بدأت ذاكرتهم الغريبة تُثقل بما أروي لهم في كل صيف يعودون وهكذا انتهوا بمعرفة حصة كاملة من الماضي المعاش بين هذه الجدران بكل ما قصصته من دعابات ولحظات وأحاديث بل وباتوا يطرحون عليَّ الأسئلة حول جدي وجدتي وكأنهم يعرفونهما شخصيّاً. وهكذا ومنذ وفاة والدتي، ندر ما نلتقي جميعنا معاً أبي وأخي وأختي في هذا المنزل، عدا يوم الميلاد، بل باتت العائلة التي اخترتها من تلتحق بي هنا: الرجل الذي أحببت وأطفالي وأصدقائي. بنينا معاً ذكريات مشرقة منذ عامين حسب ظني ستغتني على مرّ السنين لنصنع ذاكرة مشتركة تبث فينا السعادة.

سأبلغ حدي قريباً وحجم بطني صار هائلاً، ما كان الجنين مستعجلاً ليقبل إلى العالم. يوقفونني في الشارع ليسألونني إن كنت أحمل توأماً. حركاتي بطيئة وجسدي بطيء والزمن معلق. أتنزه في باريس، برخاوة.

مرَّ على الهجمات أكثر من ثلاثة أشهر. كل يوم أتمشى وأتمشى وأتمشى. راودني إحساس أن عليَّ أن أمشي لألحق شيئاً ما هرب مني، ما كنت أعرف ما هو هذا الشيء الأساسي الذي يدور بدائرة جديدة. وبدا لي أنني لن أمشي أبداً ما يكفي لأجده. سرت محاولةً أن أكونه وما توصلت لذلك.

أذكر ذاك الإحساس بدقة: كان عليَّ أن أسير لألتحق بشيء ما يعيد، بنظري، للعالم وحدته. تملكني ذلك بعد ظهيرة يومٍ ما بينما كنت أمرّ أمام واجهة متجر عطور. يعلن الربيع مجيئه وبدأ الجو اللطيف ولاحت البراعم على الأشجار. تذكرت عطر أمي، ذاك العطر الذي تعطرت به طيلة حياتها. وددتُ أن ألاقي ذاك العطر. حدث ذلك بغتة ذاك اليوم، بعد مرور خمسة عشر عاماً على وفاة والدتي، تملكتني رغبة لا تكظم: يجب أن أجد ذاك العطر. لا بدّ أن أقتفي أثره كاملاً، لا بدّ أن أجد ذاك العطر حتى النهاية.

كانت تتعطر بعطر ميتسوكو، على عكسي فأنا ما كنت وفية لأي عطر، هي ما بدلته أبداً.

أذكر ذاك الشعور الغريب المضني حيث أنهيت بعد ظهر ذاك اليوم خطوتين متزامنتين ومتوازيتين، واحدة خارجية والأخرى داخلية استحوذت عليَّ لدرجة أن بدتا بالنسبة لي غير منتهية وكأنهما في الوقت الذي بدأتا فيه، لا يجب أن تتوقفا أبداً ولا تلتقيا بأيّ نقطة لكنهما تسكنان الجسد ذاته: الأولى مرئية وبطيئة جدّاً دون شك لكنها ترغب بالسرعة، خطوة ترنو كسائر الأيام السابقة لتتقدم نحو هدفٍ تجهله على أمل أن تمسك بشيء ما تجهله. الثانية لا تثير الشكوك وخارجة عن الزمن وتبحث بكل ما أوتيت من قوة عن عبقٍ زائل. سرت في باريس، سرت ناعسة في الخارج والداخل. ما كنت في أيّ مكان، كنت هنا وفي الماضي، كنت في مكانٍ آخر والآن.

كان بوسعي الدخول لمتجر عطور وأطلب من البائعة أن تفتح لي زجاجة ميتسوكو وأستنشق عبقها. قد يكون ذلك سريعاً وفعالاً. لكن انقطعت أنفاسي لمجرد فكرة أن أستنشق عطر والدتي المتوفاة منذ خمسة عشر عاماً في متجر عطور، أمام بائعةٍ مجهولة ومن حولي زبوناتٍ مجهولاتٍ أيضاً وثرثارات وربما متصنعات. والباقي، عليَّ أن أعثر على الأريج بنفسي كزهرةٍ منسية تفتحت في قدس أقداس جسدي، من ذاكرتها التي أفلتت مني باللحظة الحاضرة، مما لا أعرف حتى ماذا يذكر؟ آثار ذات ديمومة هنا وفي مكان ما، لست أدري، تحت إهابي؟ العثور على عطر والدتي يعني أن أعثر على عالمٍ بأسره، عالم افتقدته منذ خمسة عشر عاماً – عالم مفقود منذ الأزل، لعلّه الحلم

بوالدتي، الحلم برقتها وحنانها وبجسدها الذي يلامس جسدي، هي التي قلما أخذتني بأحضانها، قلما عانقتني رغم أنها أحبتني كثيراً. هي التي أفتقدها حتى وهي على قيد الحياة وآلمني هذا الشعور كلسعةٍ صغيرةٍ عنيفةٍ.

الدخول لمتجر عطر وطلب زجاجة ميتسوكو واستنشاقها بشكلٍ كاملٍ ومباغت سيعيد خمسة عشر عاماً تلت غياب والدتي دون أن أكون أنا من اقتفى الأثر، سيكون الأمر لا يطاق بل ودون جدوى: غرض بحثي وعقدته لا ينفصلان عن سيري بغير هدى، تحسساً لأصل لهدفي في غوصي في المياه العميقة لما لم يعد له وجود.

لا أدري كم من الوقت سرت ذاك اليوم. ما أذكره بدقة هو إحساس الفراغ الذي سكنني حين عدت إلى منزلي فما عثرت على شيء ولا استعدت شيئاً.

ما فارقني ذلك خلال أيام، ما توقفت عن التفكير. بحثت وأغمضت عيني وحاولت أن أتذكر ولكن كيف لي أن أذكر عطراً، كيف أستحضره؟ بقيت الزهرة منسية. يبدو لي أن عالماً داخلي قد تمّ ابتلاعه وكأن عدم قدرتي على العثور على ذاك العطر فعّل غياب والدتي للأبد وغياب عالمها معها.

مرت عدة أشهر وما عثرت بعد على عطر والدتي. ومع ذلك فقد استعدت جزءاً. بغياب عطرها، أعدتُ تكوين الإحساس المطابق لما يعتمل داخلي، تلك الطريقة التي أنقلب فيها حين أستنشقه كم كان ثقيلاً وقويّاً لا من الوهلة الأولى، بل الثانية كعطرٍ ذي وجهين الأول عذب وفوّار ومرح مما يخفي طبيعته الحقيقية وهي أنه عميق وقوي ومهيمن. أذكر الدوار الخفيف الذي كان يراودني حين تخرج والدتي

مساء وتدخل بعد أن تعطرت لتقول: «عمتم مساءً» لي أنا وأختي وأخي بينما نتناول عشاءنا. وددت أن أغوص في فوحانه بعد أن أشمه، ما إن يغادر والدي المطبخ ويُسمع صوت باب المنزل، نعم كنت أغوص بسريةٍ بالأريج وأستنشق أيضاً وأيضاً ما بقي من أثره الطويل، يدور فيّ، داخل جسدي، كل جسدي ليصبح لي وأحتفظ به قليلاً تحت إهابي.

تساءلت خلال أسابيع لماذا راودتني هذه الرغبة الملحة بعد مرور خمسة عشر عاماً على وفاة والدتي، هل يتعلق الأمر بفقدان المنزل؟ يكمل عطر والدتي فقداني موطن طفولتي، عطر والدتي ضد الفراغ الذي تولد داخلي مذ عرفت بأن علينا بيع المنزل؟ عطر والدتي ضد إحساسي بفقدان جزء من ذاكرتي؟ الأريج داخلي وسيبقى للأبد أريج الجسد الأول ضد فقداني للمكان الذي أصبح بالنسبة لي وعلى مرّ السنين الجسد الملجأ؟

أليس أكثر من ذلك، ألا يرتبط بإحساس التجزئة الذي راودني منذ ثلاثة أشهر وكأن العالم وعالمي الداخلي قد ارتعدا في آنٍ واحد وتصدّعا في آنٍ واحد؟ ولج الخوف في حياتي كذلك كل ما لا نتوقعه والشعور بفوضى العالم ووحدته المفقودة. هل العثور على عطر والدتي هو العثور على وهم الأرض القوية وهكذا أطرد الخوف والفوضى التي سكنتني منذ ثلاثة أشهر بشكلٍ هيستيري؟ هل العثور على ملجأ في هذا الأريج المنبثق من الماضي حيث أضيع وأتخبط كطفلٍ يبني برائحة والدته عالماً بأسره، مملكة، أوسع وأقوى من العالم الخارجي؟

هل لكل ذلك معنى؟ كيف سيعيد لي عثوري على عطر أمي العالم بأقل ضرر؟ ما عدت طفلة وسأعرف ما حييت سلطان الأم. هل أصبحت حدود العالم وحدود جسدي، حدود الماضي والحاضر

مسامية إلى هذا الحد؟ هل اختلط كل شيء وتشابك هكذا؟ هل أكاد أكتشف شيئاً ما كنت أجهله عن الحياة وعن وجودي في العالم؟ شيء ما عن هذا الممر اللعين ما بين الداخل والخارج، الحياة الداخلية والخارجية؟ أيّ سينما هذه؟

إلا أن تكون هذه الرغبة المهيمنة وليدة أنني سأصبح أمّاً من جديد والانفعال الشديد الذي يزودني به، أنا التي ما خلت أبداً أن أرزق بطفلٍ آخر.

تجاهلته. الشيء الوحيد الذي كنت أعرفه هو تلك الرغبة التي ما فارقتني والتي أبكتني أحياناً صدفة بنزهةٍ أو حركةٍ ما. إنها هذه الرغبة الوحيدة، رغبت بالعثور على شذا أمي وعلى شذا عطرها.

في الخارج أو في الداخل، هل هناك علاقة؟ في الخارج والداخل. سرت في باريس طيلة شهر نيسان يدفعني الأمل المجنون بإعادة تشكيل الوحدتين المفقودتين وهذا لا يمكنني أن أبوح به لأحد.

نهضت قفزاً تلك الليلة متضايقة. شعوري بحالة طوارئ تخللت حتى أصابعي. ترددت في رأسي جملة: ثمة الكثير من الأشياء التي ما كتبتها عنه.

ثمة الكثير من الأشياء التي ما كتبتها عنه. راودني حلم المنزل مجدداً. شعرت أنني محمومة وقلقة. فهمت ما قد يحدث في اللحظة التي أضع فيها نقطة النهاية لهذا النص دون أن أكتب وأقول كل شيء عن المنزل ليبقى للأبد هكذا متهادياً وغير مكتمل بينما رغبت بإعادة تكوينه كاملاً وأرسيه أبداً وفيّاً لما كان عليه، لما كان عليه كليّاً. أجل فمن سيكمل من بعدي الكتابة؟ لا شك ستكون هذه المرة الأخيرة التي نكتب فيها عن المنزل فيما بعد سيفوت الأوان، ما لم نكتبه سيطويه النسيان، ما لم يكتب سيختلط مع ما لم يكن موجوداً.

وهكذا تذكرت في عتمة غرفتي أن راودني هذا الشعور نفسه بالضبط منذ عدة سنوات خلت حين كرست أحد عشر مقطعاً كاملاً من أحد كتبي لوالدتي وأنني في المقطع الختام قلت في سرّي في مزيجٍ من الانبهار والألم إن منطقيّاً لن يكتب أحدٌ عنها أبداً ولأنني ما كتبتُ كل شيءٍ عنها، بدا لي أنها توفيت للمرة الثانية ولكنها توفيت هذه المرة للأبد، سقطت في هوة النسيان.

حاولت في الشطر الباقي من الليل أن ألتقط المنزل بأفكاري، أن ألتقط كل ما يخصني وأجمعه بنظرة أو بكلمات أو بصور. رغبت. رغبت. بالطبع، كان من المستحيل، ما جمعت شيئاً من الكل، أفلت المنزل مني بل أفلت كل ما كان عليه فهو ما كان بالنسبة لي بناءً جامداً بل جسداً حيّاً يعبره التاريخ، جسداً يخفق دون انقطاع، يخترقني ويحيا وأن هذا الجسد جزءٌ مني.

إذن حتى ولو قلت كل شيء، حتى ولو فشلت بأن أقول بجملةٍ واحدة وبكتابٍ واحد كل المنزل، سأكتب عنه أيضاً وسأشق لنفسي طريقاً بين الكلمات لأتمكن من الوصول إليه وكأنني أتنزّه في هذه اللحظة بالذات بين جدرانه وللأبد، أن أعيده للوجود أيضاً وأيضاً، أعيده للوجود أبداً، أمزج الماضي بالحاضر كما يتشابكان بشكل طبيعي في منزلي دون نسيان التفاصيل فهي في النهاية ما أشعر بها حين أكون هناك، إنها التفاصيل التي تخترق جسدي.

النسمة العليلة التي تهب الساعة الحادية عشرة صباحاً حتى في الصيف، بل خاصة في الصيف فنتنهد بخمول ومنذ سنوات: «لا نشعر بالحر هنا أبداً، أوه، لا نشعر بالحر أبداً هنا لو كنا بالمدينة، أوه لو كنا بالمدينة، مساكين، أوه كم هم مساكين سيموتون من شدة الحرارة في المدينة...» نتناول الغداء في فيء شجرة التوت، وتداعب النسمات وجوهنا وأكتافنا بعذوبة لتختلط علينا عذوبتها مع العذوبة التي تتملك قلوبنا.

البعوض وطنينه المرهق حين يفلت أحدها مساءً لحظة النوم، ذكرى بعض الليالي التي ما عرفنا فيها طعم النوم وهوسي بأن أطاردها منذ الساعة السادسة مساءً في الصيف، حيث أغلق مصراعي النوافذ في

كل الغرف وأصل مضاد البعوض بالكهرباء وأطلب إطفاء الضوء في الغرف، كل الأضواء. يسخرون بلطفٍ مني وأهز كتفي، أفكر بصوتٍ منخفضٍ: اضحك الآن يا عزيزي وستضحك في غرفتك هذه الليلة بمحاولاتك المختلفة بإبقاء البعوض بعيداً طيلة الأمسية: شمع اللويزة وطارد البعوض بشكل حلزوني ومنتجات غريبة من إفريقيا أحضرها صديقي «ب» وجميعها لا تنفع، مضاد البعوض الأكثر فعالية أن يبدو أحدنا شهيّاً للسعات البعوض طيلة الأمسية بينما يستغرب الآخرون ويستمتعون أنهم قلما لسعوا: «هاك، عددهم قليل هذا المساء،أليس كذلك؟» في طفولتي، ما كان يظهر البعوض قبل نهاية اليوم مما يثير فيّ تساؤلات شتى: أين كان طيلة اليوم؟ هل كان نائماً؟ هل كان مختبئاً؟ هل يموت بعد أن يمتص الدم ليلاً؟- منذ سنواتٍ عدة بتنا نشاهده حتى في النهار صغيراً وأسود ونهماً. يلسع الأطفال منذ الساعة الرابعة مساءً ليأتون نحونا وهم يصرخون: «لقد لُسعت، لقد لُسعت!» متباكين وهم يشيرون لمكان اللسعة التي تصبح حمراء ومنتفخة خلال عدة ثوانٍ.

الخفافيش التي تحلق بأقصى سرعة في السماء مع هبوط الليل بينما نشرع بتناول طعام العشاء في الحديقة، بالكاد يمكننا رؤيتها من سرعتها بالتحليق، تمرّ وهي تخفق بجناحيها بأقصى سرعة، إحساسنا بوجودها فوق رؤوسنا بالإضافة لرؤيتها تجعلنا نعرف أنها هنا.

كم نعرق في كل مرة تطلب منا والدتي نشر الغسيل في الأسفل في قيظ الصيف، إما أنا أو أختي. حين يحين دوري تضع والدتي الحوض بين يدي مليئاً بكومة غسيل، أنزل متذمرة. الأكثر سوءاً حين يكون الغسيل مفرشاً حيث يجب طيه بعناية ثم تعليقه بملاقط غسيل على الحبال المشدودة بشكل نجمة ولكن المفارش كبيرة وذراعي قصيرتان وكنت أمضي وقتاً طويلاً لأنفذ المهمة بنجاح. أعلق المفرش

من جهة فيقع من الجهة الأخرى، كثيراً ما ينتهي به الأمر على الأرض ولأنه رطب يتلطخ مجدداً، مما يثير يأسي أدعكه كي لا يظهر للعيان، أرتقي الأدراج مبللة بعرقي.

كانت اللحظة المميزة في الصيف حوالي الساعة السابعة مساءً بعد نشاط بعد الظهيرة المرح وقبيل عذوبة المساء، النور المبهر والهدوء المباغت، الشمس انخفضت لكنها ما تزال حارقة والسماء التي بدأت تُصبغ بالوردي والترغلة التي تأتي لتشرب من المسبح دائماً من المكان نفسه، تخفض رأسها فوراً وتبتلع عدة جرعات ثم ترفع رأسها وتثبته وتركز بشدة لا أدري على أيّ نقطة ثم تقرر فجأة التحليق من جديد. كل ذلك يمزج في قلبي كآبةً عميقةً وسعادة عارمة، دون رغبة مني ولا إرادة بفصلهما.

أغمض عيني وأنا هنا في باريس، أجلس إلى طاولة العمل وأجوب بعقلي في المنزل غرفة بعد غرفة حافية القدمين، أنزلق في الصالون الكبير وأفتح مصراعي النوافذ ليدخله النور، يلجه الضياء دفعة واحدة، فيبهرني، أفتح النافذة وأخرج، أمشي على المرج، لا يزال العشب رطباً بندى الصباح، كم هو عذب، أضع أنبوب السقاية وأتوقف أمام المنغولية، نمت شجرة التوت هذا العام. الصباح والمساء كلّ بدوره، إنها الطفولة والحاضر كلّ بدوره. تشتعل السماء، أراقبها تشتعل من أعلى الشرفة. عمري ثمانية أعوام، عشرون عاماً، اثنان وأربعون عاماً وما زالت السماء المتوهجة خلف التلال من أجمل ما رأيت في العالم. أرتقي الأدراج بسرعة لأحضر وشاحاً من غرفتي إذ بدأ الطقس يبرد هذا المساء، أطلق ضحكةً مجنونة حين أرى «و» يقلد تينا تورنر. لا أجرؤ أن أرد على جدّي الذي يسألني عن سبب فرحتي بالقدوم إلى نيس، فهما لا شك السبب هو وجدتي، لأنني أحبهما أكثر من

الجميع ولأن وجودهما يبث في نفسي الدفء. أرمي في الحاوية جبلاً من لحاء الليمون الأخضر الذي حضروا منه شراب الموهيتو. أعلم ابنتي الكبرى كيفية الغوص وأنا أقول لها بألا تخاف، أتمدد على بلاط المسبح الحارق ولا أفكر بشيء، أترك الشمس تسحق جسدي وأفكاري. أرى نحلةً تلعق العشب وأقول لـ «ج» إنني أحبه، ألتهم سرّاً عدة قطع من الشوكولا الإيطالية الخاصة بجدتي وأمسح فمي لكي لا يلحظ أحد. أقطف ثلاثة غصون من الميموزا وأضعها في زهرية على الطاولة الخشبية الكبيرة، أبحث بتأنٍّ عن نفلةٍ ذات أربع أوراق في الحديقة لأن أختي قالت لي إنها تجلب السعادة ولكنني ما عثرت على أيّ واحدة، أشرب المليسة التي قطفتها من البستان جالسةً على إحدى الأرائك الخضراء في الحديقة وأنا أقرأ «الأميرة دوكليف» في فيء شجرة التوت. أحضن جدتي بقوة وأتحسس عبر صدرها اهتزازات صوتها المرح، أستنشق شذا زهر العسل مع هبوط المساء وأرى «د» و«س» ناعستين على الضفائر الأفريقية الملونة، أسمع ابنتي في الحمام وهن يقارن سمرتهن المحببة. أباغت سحليةً تتسلل بأقصى سرعة ما بين الأدغال، أقطف الليمون من الشجرة، أتسابق مع أختي وأبناء عمومتي بالعربة اليدوية ونقهقه بصوتٍ عالٍ ثم نتدحرج على المرج. ينفخ والدي المسبح البلاستيكي بمنفاخه الجديد، ألتقط لابنتي صوراً في الحديقة وأتساءل كيف يمر الوقت بهذه السرعة، تأخذنا المفاجأة أمام الرافيولي صنع جدتي ثم نلتهمها بالسرعة القصوى. ارتدت والدتي أجمل أثوابها هذا المساء وأسمع رنين ضحكتها.

ولأن علينا وضع النهاية رغم أن لا شيء ينتهي أبداً، وددت التحدث عن شذاها ككل الجسد يمتلك منزلي شذاها ويبدأ منها كل شيء على ما أظن. هي أول من قال لي حين أفتح البوابة البيضاء سأعود. وبها

أيضاً انتهى كل شيء وانتهى الأمر بأن فقدتها بعد مرور عدة أشهر أو عدة سنوات من بيع المنزل ربما كنت أعرف أنني سأفقد منزلي للأبد.

شذا منزلي كان في البدء شذا شجر السرو لاذعاً وقويّاً يقفز في الحلق ما إن تغلق البوابة. ثم وكلما غصنا في الحديقة ليصبح مزيجاً حلواً منفرداً يشبه العسل وسبائك من الورد والتوت والليمون وإكليل الجبل والميموزا والمليسة التي ما زلت أعرفها بل وأتعرف عليها من بين ألف. يحدث لي مرات بينما أقطع وردةً جوريةً أو أقطف أوراق المليسة أن تغرورق عيناي بالدموع متسائلة أليست هذه امتداداً لأصوات كل من عاشوا بين هذه الجدران، امتداداً لأصواتهم العائمة والأبدية.

نهاية نيسان، رأى طفلي الصغير النور. مرّ عشرة أشهر على هجمات باريس. قالت لي القابلة القانونية: «ها هو هنا، أرى شعره». عرفت حينها وكأن كل ما سأعيشه لاحقاً مرّ أمامي كلمح البصر وأنني أعيشُ اللحظات الأخيرة لحياة توشك على النهاية وأشرع بحياةٍ جديد على وشك البدء، حياة لا يمكن لها أن تختلط ولا بأيّ شيء بالحياة السابقة التي تنتشر فوقها ولا تنساها، بل تبحر معها لتعلو بها نحو حاضرٍ جديدٍ، حاضرٍ يحمل المعجزات وكأن الزمان حتى في خضم الحياة يتمكن فجأة من رسم حدود لا رجعة فيها فيحدد الأراضي. سابقاً كان الأمر كذلك ومن الآن فصاعداً سيصبح هكذا. منذ عشرة أشهر، كان الطقس مناسباً لربيعٍ ولصيفٍ، فصلين حافلين ولكن الخريف بدأ، أمام نافذتي الأشجار ضاربة للحمرة والنور مائل، أعرف أن الشتاء قريب بالكاد صدقت فالطقس ما زال لطيفاً. هل يرفض الصيف الانتهاء أم إن شيئاً في الفصلين الماضيين يرفض الموت. ماذا تمثل عشرة أشهر من حياة، أجل تمرّ طويلة وسريعة، ولكن هل تكفي شهورٌ عشرة للنسيان أو لنتعلم الذكرى أو حتى لنتعلم الحياة؟ رأيت الرأس الصغير ينبثق من بين فخذي، رفعت موجةٌ عنيفة جسدي الممدد فوق طاولة الولادة، قدماه معلقتان في الحزام، عارياً في قميص المستشفى الأزرق الفاتح، ما انفكت الموجة تهز جسدي وكأنه أصبح ضخماً وكأنها مددته

وبسطته خارج حدود نفسه حتى، خارج حدود ما كان عليه، جسد امرأة عادية مرهق لكن الموجة جعلته جليلاً لا يهزم وأبديّاً ووصلته لمرةٍ تعادل كل ما يليها وبصورةٍ أبدية بالعالم وتاريخه، تاريخ كل من جاء قبله وكل من سيليه. طلبت مني القابلة القانونية أن أكفّ عن الحراك والتنفس. أشحت بوجهي بجزءٍ من الثانية نحو «ج» فرأيت النور يشع من وجهه وعينيه تلمعان مأخوذاً بما يعجز اللسان عن وصفه الذي يحدث هنا، على بعد عدة سنتيمترات من ناظريه، يعبر باقي الجسد الصغير من العتمة للنور، تناهى لمسامعي تعجّب مخنوق ثم وضعوا الصبي الصغير بين يدي. أوه كيف أصف إحساسي بجسدٍ صغيرٍ ملاصق لجسدي، جسد صغير منذ لحظاتٍ فقط لم يكن في العالم والآن فجأة أصبح هنا، بصورةٍ لا تصدق صار هنا، عارياً متقوقعاً على جسدي، دافئاً، دافئاً جدّاً وهو يصرخ لكنه ما عاد يصرخ، ينبش ويبحث بوجهه أين من يحبه وكيف سيحبه وما الوضعية التي يأخذها على هذا الجسد الكبير الذي مُنح له بغتة وهو يجهله كليّاً، يجهله كليّاً عدا صوته وقرقرة بطنه وكل ما لا يقال لكنه يخترق الجسد خلال تسعة أشهر، الأحاسيس الصغرى والكبرى، كنت أسمعه ينمو مطلقاً شكاوى بمنتهى البساطة، ماذا كان هذا الامتداد الهائل من الجسد الذي وضعوه عليه. أجل كيف أصف اضطراب هذه اللحظة. منذ أن أصبح العالم عالماً وكم من مرةٍ تكررت هذه اللحظات وكم من مرةٍ حدثت هذه الأعجوبة أن يظهر جسد صغير من بين فخذي امرأة وصرخة مفاجئة من صوتٍ جديدٍ يجتاح الفضاء وذراعا المرأة تمتدان وموجة الفرح والانبهار التي تخطف الجسد. أوه يا بني. أوه يا بني، هذا أنت، هل هي هكذا في كل مكان ومنذ الأزل؟ ما عدت أسير في باريس وأنا أشعر أنني أسير خطوتين متوازيتين ومتزامنتين. ما عدت

أسير في باريس باحثةً عن عطر أمي، وشيءٌ ما داخلي أجهله يحمل إليّ شعوري بالوحدة المفقودة، فهمت أنني لن أعثر على هذه الوحدة كما لن أعثر على عطر أمي الذي أبحث عنه بعد خمسة عشر عاماً من وفاتها. أدركت أن حتى ولو فتحوا أمامي قارورة عطر ميتسوكو لن يكون ذاك العطر الذي تحرقت لأجده في الربيع ولعدة أسابيع. غاب العطر الذي أبحث عنه مع وفاة والدتي، لم يعد هذا العطر موجوداً في أيّ مكان ولا في أيّ قارورة. الشذا الذي أبحث عنه هو شذا عطر والدتي على بشرتها والحياة تنبض في عروقها لا عطر ميتسوكو في قارورةٍ، أقتفي عطر والدتي تنعم بالحياة، لكن الزمن رسم حدوداً لا رجعة فيها تبدو لي جنونية حتى اليوم. لن أعثر على والدتي بعد مرور خمسة عشر عاماً على وفاتها كما لن أستعيد إحساسي بوحدة العالم، ما حدث في شهر كانون الثاني حدد داخلي أبداً ما قبل وما بعد. ما حدث في شهر كانون الثاني شرخ العالم الذي أنتمي إليه. إذن ستصبح الأمور على هذا المنوال، كم تعلمنا عن التاريخ وقرأنا كتباً ورأينا أفلاماً، ولكن فقط حين يصعق جنون الإنسان القاتل حياتنا حتى ندرك أنها ما كانت خدعة، ما كنت أعرف ذلك قبل السابع من كانون الثاني، ما كنت أعرف هذا الأمر الذي يخال العالم بأسره أنه يعرفه، ما كنت أدركه جيداً أو على الأقل ما كنت أدركه بالعمق. ما أصيب جسدي قط بكارثة قاتلة، ما زالت تحوم فوق رأسي كفكرةٍ عبثيةٍ وبعيدةٍ ودماغية، فكرة لا تجسيد لها كليّاً. هل هو هكذا في كل مكان وعلى مرّ العصور. بالتفكير مليّاً لا أجد الثقة المطلقة، بالتفكير مليّاً أعتقد أنني أبداً ولا حتى فيما بعد حين سمعت أن رجلاً أجهز على امرأة أثناء وضعها لطفلٍ خلال المجازر الأخيرة في نيجيريا وأن الرجل قد سدد على رأس الطفل حين لاح من بين فخذيها ثم صوب نحوها. هذه المرة في نيجيريا، في اللحظة التي

كاد فيها الطفل يلتحق بعالم الأحياء، سُلبت منه الحياة. ما كان بوسعي سوى أن أتخيل كل ما كان يحيط بالمرأة والطفل، الأشجار والأوراق والسماء والأرض، كلها أغمضت عيونها لئلا ترى ما لا يمكن رؤيته. هذه المرة في نيجيريا، ما عجزت الكلمات عن وصف الفرح بل عن وصف ما لا يصدق. هذه المرة في نيجيريا، تلك المرأة التي كادت تهب الحياة عاشت الليل المطلق ذاك الليل الذي يغطي العالم، هل هناك كلمة تصف ذلك، أنا لا أعثر عليها، لا أعثر على الكلمة التي تثير في داخلي فكرة المجزرة. الجسد الصغير الذي ما جاء بأكمله إلى العالم أُجهز عليه، ما كان لذاك الجسد الصغير الوقت ليحيا أيّ شيء، ولا ليعرف أيّ شيء. أليس هذا جنوناً بشريّاً هائلاً، تعلم ذاك الجسد الصغير ما لم أحياه ولم أتعلمه ما حييت في خلال اثنين وأربعين عاماً. ما زلت أتساءل في المترو والحافلة هل نسي الرجال والنساء الذين أصادفهم، بعد مرور عشرة أشهر، هجمات باريس، أم إنها تخطر لهم بين الفينة والأخرى عبر حركةٍ ما أو كلمةٍ ما أو صورةٍ ما. صباحاً حين يرتدون كنزة أو مساءً حين يخلعون ملابسهم. ألا يخطر لهم بلمح البصر جنون تلك الأيام الثلاث، هل شرخت تلك الأيام علاقتهم مع العالم أيضاً، هل انحل بالنسبة لهم شيءٌ ما للأبد وكأنهم عُزلوا عن شيءٍ جميلٍ ملكوه طويلاً بين أيديهم دون أن يدروا. إذن، كيف يفعلون وماذا يفعلون وكيف يعيشون؟ كنت أكتب هذه الكلمات بعد ظهر يومٍ من تشرين الثاني جالسة أمام نافذتي والأشجار الضاربة للحمرة تتعالى نحو السماء، أفكر بتلك المرأة المجهولة التي ولدت وتوفيت بعيداً جدّاً عني وعن الفرح الذي تملكني في قاعة الولادة منذ ستة أشهر مضت، قاعةٍ لا نوافذ لها في مستشفى روبير دوبري، أفكر بتلك المرأة التي كنسها دفق التاريخ وابتلعها النسيان، توفيت هي وطفلها هباءً،

قضوا نحبهم لأنهم هناك، بلحظةٍ وجدوا في طريق بربري. أفكر بها وتساءلت هل يمكن أن تحيا الكلمات فقط في زمن كتابة جملة قادرة على خلق أخوةٍ صامتةٍ لينبثق مكانٌ ما بين أولئك الذين يقرؤون هنا وتلك المرأة المجهولة هناك بما يعيدها للحظات نمسح بها جبينها ونضع طفلها على صدرها، أن نهبهما الوقت ليتعانقا قرب الأشجار والأوراق والسماء والأرض وكل ما كوّن المشهد الأخير.

ماذا تمثل عشرة أشهر من زمن الحياة؟ ماذا تمثّل من التاريخ؟ حين امتزجت بالعالم مجدداً، بعد ولادة ابني الصغير بعدة أسابيع واستقليت المترو مجدداً والحافلة وسرت مجدداً في باريس بعد مرور ذاك الزمن الخارج عن الزمن حيث تتسارع الحياة حول الجسد الصغير خاصةً، حياة دون نوم، حياة قلقة، حياة مذهلة، حياة مرهقة، حياة ذات إيقاع، حياةً خارقة. بعد مرور هذا الزمن، وجدت نفسي في صخب العالم الذي أستكشفه مجدداً وكأنني وُهبتُ عيوناً جديدةً أو كأنني عُزلت خلال أسابيع عن كل ما تعلمت، نسيتُ كل شيء. ماذا تشبه الحياة هنا، هذه الأجساد التي تتسارع نهاراً في المواصلات. هذه الوجوه المرهقة في الغالب والتي قلما تبتسم، التي لا تلتفت للآخر وكأنه يتقدم في دربٍ لا يلتقي أبداً بدرب الجار، الاضطراب والإحساس العائدان من الصمت ومن زمن متباطئ. كل شيء هنا الرائحة والهواء والأصوات وكل ما يسير أجساد وأدوات، ثقيلةً وعنيفةً وسريعةً، بل سريعةٌ جدّاً لدرجة تقطع الأنفاس، إذ كل ما وددت فعله، أنا القادمة من بعيد، الشيء الوحيد الذي وددت فعله أن أضع يدي على ذراع جاري وجارتي لأعلمهم بهذا الشيء اللامعقول الذي حدث لي، ذاك الشيء المؤثر والغريب، لقد وضعت صبيّاً صغيراً، جسداً صغيراً خرج من جسدي وإن هذا الصبي الصغير ينمو كل يوم قليلاً ويستيقظ ويفتح

عينيه على ما يحيط به. هذا الصباح، سمعنا ضحكته الأولى وأمس داعب شعر ابنتي، أليس ذلك خارقاً، أليس ذلك خارقاً بكلٍ بساطة. كم وددت أن أفعل ذلك لكنني لم أجرؤ، وما جرؤت أبداً. كل ما يأتيني من الخارج مغلق جدّاً، لا يوجد لا مكان ولا وقت لكلماتٍ كهذه، الكل يسعى في حياته، الكل يركض على سكّته لذلك اجتهدت أن أبقى منتصبةً على مقعدي وأحتفظ لنفسي بما يراودني من مشاعر وأتأمل الوجوه، بل أتأمل الوجوه خاصةً محاولةً أن أكتشف من بين كل أولئك الناس الذين أصادفهم من منهم غاب عن العالم مثلي لعدة أسابيع، لا بدّ أنهم الغالبية، لا شك من بينهم من لم ينسَ ولأنهم ما نسوا غيروا شيئاً ما في حياتهم.

أمضينا أسبوعين هذا الصيف في منزل طفولتي، هذه المرة ما حجزت أربع تذاكر بل خمس. نحن خمسة الآن، كررت ذلك في سرّي عدة مرات وأنا أحجز الأماكن، بقيت مذهولة. قمنا بالرحلة والجسد الصغير متكورٌ عليّ طيلة وقت الرحلة وكأنني أنا وهو من يحلق لا الطائرة ملتصقين ببعض ومتجهين نحو الأذرع الكبيرة البيض. استقلينا سيارة أجرة في المطار والجسد الصغير ما زال يعانقني. لدى وصولنا أمام المنزل أخرجت من حقيبتي المفتاح الصغير المدور الذي ما زلت أحتفظ به لست أدري منذ متى. فتحت البوابة البيضاء فهاجمني للتوّ ضوع الأشجار وانتشل مني شيئاً ما ووقعت، كلا، لم أقع بل تقدمت في ممر الحصى أضم صبيّي الصغير وخطونا معاً عدة خطوات في الحديقة، تقدمت ببطءٍ منعقدة اللسان، هكذا سأكشف لصبيّي الصغير، قبل وقتٍ قصيرٍ من البيع، منزل طفولتي. هكذا رُزقت بصبيٍّ صغيرٍ وسأفقد منزلي، بدا لي الأمران جنونيين كلاهما. سمعت صوت ابنتي و«ج» من ورائي وهما يدخلان إلى المنزل عائدين من

المدرسة وتتعالى صرخات فرحهما، تابعت التجول في الحديقة مع صبيّي الصغير متكوراً بحضني واقتربنا من أشجار السرو وجعلته يشمّ شذاها وشذا الورد الجوري وإكليل الجبل والعشب المجذوذ وأوراق شجرة الليمون ثم أريته البحر الأزرق هناك بهيّاً للعيان لكنه عانى بفتح عينيه، ظل صامتاً. تراه يشعر بتميّز هذه اللحظة، بماذا يميز نقطة البداية والنهاية، بماذا يخترق حواجز الزمن ليربطنا كلينا بتاريخنا، شددته بقوةٍ أكثر إليّ وصمتُّ أنا أيضاً ثم دخلنا إلى المنزل وأريته الغرف والمطبخ وحدثته بصوتٍ منخفض، قلتُ له: «هنا ستكون بخير، هذا منزل أسلافك من ناحية والدتك، منزل جدتك ووالدتك. هنا لن يصيبنا مكروه لا لك ولا لي». حدث قتل بربري، اقترفت باسم الدين حسب ما زعموا، لكنها اقترفت قبل كل شيء باسم العدم، باسم السلطة وباسم المتعة بالإيقاع بمن هو مختلف وحصد حياة البشرية التي ارتقت بصبرٍ يوماً بعد يوم، ومنذ مجيئها للعالم مثلنا جميعاً دون شك وكبرت وتعلمت وأحبت وتثقفت واخترعت وبحثت، هذه الحيوات حُذفت بخضم انطلاقها، تلك الحيوات التي كادت تكون حياتنا نحن لو مررنا من هناك في السابع أو التاسع من كانون الثاني، أو لو مررنا بطريقهم، لو ذهبنا لشراء الحاجيات من متجر كاشيه في باب فانسن، لو اخترنا أن نهب أنفسنا لنصرة الضحك وحرية التعبير مع وضد كل شيء. الآن عرفناه، الآن حدث ولعله سيحدث أيضاً غداً أو بعد عدة أسابيع أو عدة أشهر، ماذا بوسعهم أن يفعلوا بحياتنا، ماذا سيخترعون أقوى مما حدث، أقوى من تحويل كل شيء للعدم؟ خلال هذين الأسبوعين اللذين أمضيناهما في المنزل، اكتشف صغيري الحرارة والبحر وأريج المنطقة المتوسطية ونقيق الضفادع مساءً وغناء صرصار الليل وتحليق الخفافيش لدى هبوط الليل بينما يشعر بسعادة

كل من يحيط به وتلك السعادة العذبة بوجودنا هنا، في منتصف الصيف، في هذا المنزل الذي يحمينا. يسمع ضحكاتنا وشعر بخمولنا واستهتارنا والزمن الحاضر ممتد وكأنه أزلي وكأننا سنبقى هنا للأبد في هذا المنزل في منتصف الصيف وكأن هذه اللحظات لن تنتهي أبداً. فجأةً، اخترقتني فكرة أنه لن يتذكر هذه الحديقة وهذه الجدران وسعادتنا مجتمعين معاً هنا، لتتركني مذهولة كأنني فرغتُ من كل شيء حتى يوم تساءلت ماذا بوسعي أن أخترع في حياتنا لتبقى القصة التي عشناها هنا، ما بين الجدران، خلال سنواتٍ طويلة ويبقى أثرها وتصل لابني فلا يبتلع النسيان كل شيء مرة أخرى.

هكذا عاد وهكذا سيعود ويعود أيضاً كموجات الرعب والبربرية، ستصبح جزءاً من حياتنا ومن أيامنا ومن ليالينا. بكت ابنتاي صباحاً قبل أن تستقلّا المترو فإعدادية ابنتيَّ تقع على بعد خمس دقائق سيراً على الأقدام من مكان المذبحة. ترجياني مساء أمس: «ماما، ماذا لو بقينا غداً في المنزل هكذا نبقى في أمان؟» ما عرفت كيف أطمئنهما إذا اقتحم الطارئ حياتنا. كررت في سرّي مئة مرة منذ مساء يوم الجمعة أن ما ليس بالحسبان اقتحم حياتنا ولكننا عرفناه هذه المرة عن قربٍ أكثر ولن نتمكن من نسيانه، لن ينساه أحد. عاد ومزق أيامنا، كان متوقعاً منذ زمنٍ طويل بأن أستقل القطار يوم السبت في الرابع عشر من تشرين الثاني لأذهب إلى مكتبة في أويناكس، الساعة الثالثة صباحاً بليل الجمعة – السبت، وددت أن أرسل رسالة للمكتبة لكن تملكني ضيقٌ جنوني بكتابة جملة مفهومة، فقدت حسّي تماماً. ما كنت أعرف كيف سأبدأ ثم أتابع ثم كيف أنهي الجملة. ما كنت أعرف ما عليَّ أن أقول لها، ما كنت أعرف ما كان عليَّ أن أقول، ما كنت أعرف إن كانت على علمٍ بما حدث في باريس وهي في أويناكس والساعة الثالثة صباحاً، إرداء مئة وثلاثين شخصاً بالرصاص ومئة وخمسين آخرين جرحى. ما عثرت على الكلمة التي تعبر سوى «الإبادة» فكانت الكلمة الوحيدة التي خطرت لي وكانت الوحيدة التي بقيت على قيد

الحياة بينما قضى الآخرون نحبهم ومسحهم القتل عن وجه الأرض. «الإبـادة» كلمةٌ بوسعي أن أكتبها عشر مرات تباعاً، دون أيّ كلمة أخرى، لعلها الطريقة الوحيدة لجعلها تفهم أنني لا يمكنني المجيء وأن هناك شيئاً ما قد انقلب هذه الليلة. سألت ابنتي: «كم من الوقت سنبقى بخطر، عدة أشهر أم عدة سنوات؟».

خطرت لي كلمات زيرويا شالف، فكرت بكل الحوارات التي حضرتها والتي أعطتني شعوراً بأننا نلتحق بما نعيشه، يكفي أن تأخذ هذا الاتجاه لا الآخر حتى تقضي نحبك، بينما لو أخذت الدرب الآخر لبقيت حيّاً ولعدت إلى منزلك وتناولت العشاء بهدوء. ما كررتُ على مسامع ابنتي سوى: «لا يجب أن نستسلم للخوف، هذا ما يريدونه. إذن نالوا مبتغاهم، يجب أن نعيش، يجب أن نستمر بالحياة. يجب أن نعرف أكثر من أيّ وقتٍ مضى متعة الحياة وجمالها». توقعت أن ألفظ هذه الكلمات لكن صوتاً داخلي نفخ: أوه أجل، فلنبقَ جميعاً في المنزل، لنبقَ في الدفء نعانق بعضنا البعض، لا نؤتِي بأيّ حركة ونبقى هكذا فأشعر دائماً بأنفاس أبنائي وأسمع أصواتهم وتنفسهم، كررت لهما بمنتهى اللطف: «يجب أن نحيا عزيزتي، لا تخافا». في تلك اللحظة، خطفتني ابتسامة صغيري وفكرت أنه لا يعرف شيئاً من كل هذا، من ما لم يكن بالحسبان، يبتسم لنا بكل فرحة برؤية شقيقتيه. أصبح عمره ستة أشهر وبات يمتلك معالمه الزمنية الخاصة به، بعد وقت اللعب في المطبخ سيأتي وقت الحمام ثم وقت الطعام تليه القيلولة. استغرق أسابيع ليضع ثقته في الإيقاع المنتظم للأيام. الطارئ الذي غسله كاملاً بمطلع حياته كان قد أفرغ المكان رويداً رويداً لانتظامٍ مطمئن يؤمن به حاليّاً، لا شيء مرعباً قد يحدث له في يومه الصغير وهذا تشرّبه باسترخائه العميق وبهدوئه الدائم وبفرحه.

نشرت الصحافة ومواقع التواصل الاجتماعي قائمة بأسماء الضحايا مع صورهم، تأملت وقلبي عامر بمشاعر الذهول تلك الوجوه التي وجدتها جميلةً وغالبيتها بعمر الشباب، أحدق بهم وأكرر في خلدي: ما عادوا هنا، يوم الجمعة في الساعة التاسعة مساءً، كانوا جزءاً من عالم الأحياء وفي هذه الساعة ما عادوا هنا، أولئك الذين قتلوا هم ممن يحبون الحياة والخروج وحضور حفل موسيقي وشرب كأسٍ على التيراس، نشعر في غالبية صور الوجوه المنشورة بهذه الخفة وشراهة الحياة. فكرتُ بطلابي، خشيت أن أعلم بموت أحدهم. بينما حضر جميعهم الدرس يوم الاثنين الذي تلا المجزرة عدا واحدة إلا أنهم طمأنوني عن مصيرها. هكذا إذن، نجت هذه المجموعة وبقيت آمنة، لا يمكنني سوى أن أتعزّى بعزاءٍ هائلٍ. هم على الأقل نجوا، هم على الأقل، مع أنهم يحبون الحياة وهم أيضاً بعمر الشباب وأحرار لكنهم نجوا.

كررت ابنتاي القول قبل أن تأخذا درب المدرسة: «ماما، نحن خائفتان وسنظل خائفتين دائماً الآن». ما فارقتني كلماتهما بينما كانت هذه المرة الأولى التي أخرج فيها بعد المذبحة. إذن ها أنا أسير مجدداً في الدرب المؤدية للسوق وأستقل مجدداً المترو لكن ما لمحته في هذه الساعات التي تلت الهجمات ما كان الخوف بل عذوبة لا تصدق. في البدء، قلت في سرّي إنني أحلم لا محالة أو أنسج خيالاً. ما زال ذاك الهوس البالي يستحوذ عليّ إذ أرغب برؤية الضوء في كل مكان. لكن، شيئاً فشيئاً، قلت في سرّي إنه ليس بحلم بل الحقيقة تماماً. تسود بين الناس عذوبة خارقة، وانتباهٌ رائع. ابتسمت بوجهي السيدة التي كانت مقابلي في المترو والرجل الجالس على المقعد القابل للثني هزّ برأسه كأنه يعني: نحن هنا، أنا وأنتِ والآخرين من حولنا. نحظى بأننا

على قيد الحياة، كل الناس هادئون في المقطورة، يتحدثون بهدوء. يسري بيننا شيءٌ طيب، شيءٌ من الأخوة. لمسته بكل جسدي. كانت تلك الحرارة التي تبعث تلك الساعات المتجمدة. أعدت التفكير بحركة التعاون الرائعة التي انطلقت عفويّاً في شوارع باريس منذ بدء الهجمات في مساء يوم الجمعة، أولئك الذين ساعدوا الجرحى ومن سعى لحماية الآخرين ومن استقبل أناساً في منزله ومن تبرع بالدم. هكذا هو الإنسان أيضاً. انبثقت هذه الحرارة من قلب الظلام وكأن ما هو أساسي جاء عدواً. تذكرنا فجأةً أن الشيء الوحيد المهم هو أن نبقى على قيد الحياة وكل ما تبقى أقل أهمية، الشيء الوحيد المهم هو أننا ما نزال هنا ونعبر بين الآخرين ومعرفته بالنسبة لنا وللآخر. أليست هذه الحرب. فجأة أصبحت الحياة أكثر بساطة وأكثر ضيقاً من الداخل. ما عاد زمن الازدهار ولا الحقارات. لكل المنافسات ما تبقى فجأةً سوى الحياة، الحياة وفقط، إما أمواتاً أو أحياء. هل كان من الضروري أن يضرب الجنون إلى هذا الحد لنتذكر الحياة، لماذا ننسى بهذه السرعة ما هو أصل السعادة، ألن نفقد الذاكرة أخيراً؟

قالت لي «ج»: «ربما علينا أن نغادر، أن نلجأ لمكانٍ ما. ماما.» خطرت لي مجدداً صورة المنزل وجسده الأبيض الكبير المكعب وشذا العسل الفواح والهدوء العميق المنبعث منه. كما عبرت مخيلتي كالحلم أشجار السرو الهيرية المتطاولة نحو السماء الممتدة فوق المقبرة في نيس حيث يوجد وعاء فيه رماد والدتي، ذاك المكان الأمومي القائم على تلةٍ أزورها كلما عدت إلى نيس تقريباً. ذاك المكان الجميل والساكن. أجل، لست أدري لماذا طرق خيالي حين لفظت ابنتي تلك الجملة. بالصورة نفسها، المنزل والمقبرة حيث

ترقد والدتي، تعالى صوتٌ مرتبطٌ بهذه الرؤيا لست أعرف من أين، صوت جدي الإيطالي الأجش بلكنة سكان منطقة بيمون في إيطاليا، صوت بطيء لا يُنسى خلتُ أنني نسيته». «يوم تستحيل الحياة في فرنسا، سنغادر لنعيش في أستراليا». تغلغلت هذه الجملة في مكانٍ ما في أعماق ذاكرتي لتنبثق مجدداً بعد يومين من المذبحة. لماذا خطرت لي هذه الكلمات على حين غرة. كم أثّرت فيَّ تلك الكلمات في طفولتي، كم كان عمري خمس سنوات أو ستّاً؟ سمعت جدي يلفظها بتلك الطريقة الفريدة التي ينطق بها. تلك النبرة لا نداء فيها والتي ينفرد بها بكل الظروف، كان يقول ويبدو أن الحياة تتبعه. أذكر مشاعر الخوف والإعجاب التي انتابتني، أنا الفتاة الصغيرة يملأ قلبي الضيق، خوفاً من أن أغادر بدوري بعيداً، للطرف الآخر من العالم. قيل لي: «أستراليا في الطرف الآخر من العالم». فرسمت خيالاً عن بلدٍ مختلفٍ عنا كليّاً، بلد يمشي فيه السكان على رؤوسهم. اعتمر قلبي بالإعجاب لذاك الرجل الذي لطالما أثر فيّ، غالباً ما يلتزم الصمت لكن حضوره قويّ. ما ارتاد المدرسة ويتكلم الفرنسية بشكلٍ سيئ حتى الإيطالية، فقط لهجة منطقة بيمون، ولكن حفيدته، أنا، لمست عظمته. ذاك الرجل الذي ترك مسقط رأسه وعائلته وأصدقاءه واتجه إلى فرنسا، لا يملك قرشاً في جيبه وكان على استعداد ليبدأ كل شيء من جديد ويجرب أوراق حظه. هذا هو المنفى، تلك القدرة. حين نترك كل شيء لأول مرة ونترك كل شيء مرة أخرى. هل كنا نعرف هذا التغيير وطبع الأشياء العابر والساخر. ما عدنا ننتمي لأيّ مكان ولكن لن ننسى أبداً أننا نحظى بحياةٍ واحدةٍ وأن لا شيء يضاهي جمال هذه الحياة. هل نحن مستعدون تمام الاستعداد لاختراعها أيضاً وأيضاً؟ نعم، خطرت لي كلمات جدي بينما تكرر ابنتي سؤالها وأنا كنت

أعرف أنني لا أملك بالطبع جواباً عن سؤالها، وأن لا ملجأ من البربرية ولا حاجة بنا لنبحث حتى، وسنستمر بالحياة هنا في هذه المدينة التي لطالما أحببناها. فكرتُ بالبيت الأبيض، المنزل الذي بناه جدي بعد أن أمضى سنواتٍ عديدة في فرنسا. تملكتني رغبة أكبر مما سبق بضمه وأشعر بنبضه المنتظم ليبث الهدوء في نفسي، لعل وقت العناق يلوي عنق صور المذبحة المرعبة ووجوه أولئك الشبان الذين قضوا نحبهم هباءً، قضوا نحبهم بغتةً، لعله يلوي عنق الخوف الذي سكننا منذ ذاك الوقت ويلوي عنق الظلال الثخينة التي غطت حياتنا.

كنت أقول وأكرر: اقتحم ما لم يكن بالحسبان حياتنا. رغم أن هذه الجملة وكلما هاجمتني ترتعش أطر حاضري وكأنها تكشف عن طبيعتها الحقيقية. اعترفت بأنها مجرد أطر بائسة من الورق المقوى التي استسلمت الواحدة تلو الأخرى في الأشهر الأخيرة لتعري ضعف وجودنا. صوتٌ آخر يصفر داخلي: مع أنك تعلمين أن الطارئ جزء من الحياة منذ الأزل ومن اليوم الأول يوم خرجتِ من بطن والدتك، منذ اثنين وأربعين عاماً في صباحٍ شتائي في مرسيليا. منذ تلك اللحظات التي شققت لنفسك مكاناً في هذا الدرب الطويل عبر جسدٍ تكتشفين فيه بغتةً الضخامة الغريبة حين عبر رأسك الحد الأخير ليحرر باقي الجسد المعلق لتسعة أشهر، سابحاً في مياهٍ كنت تعتبرينها لا محالة عالماً، عالمك الأزلي، عالمك الأبدي. نعم، لا بدّ أن شيئاً بداخلك كان مؤمناً بأن خلال هذه الأشهر التسعة التي مضت الحياة في الماء حيث كنت تسبحين وفيها ترعرعتِ ونمتِ ولعبتِ واستدرتِ وأصدرتِ فقاعات ومصصت إبهامك، ثم فجأةً، استسلم شيءٌ ما كشرخٍ من تحتك ومن فوقك وارتعدت أطر عالمك وبدأت تتلاشى، تلاشت بسرعةٍ قصوى وما كنتِ تعلمين ماذا يحدث. كان جسدك ينسحب رغماً عنه حيث لا

يفقه شيئاً، ذاك الدرب الطويل جدّاً والمعتم وذاك الضجيج المجهول وذاك النفق الذي ما اقتحمته طيلة تسعة أشهر وما كان أمامك خيار. شعرتِ أن عليكِ التقدم، عليكِ التقدم وأن المعركة الأولى بدأت في هذه اللحظات. كانت الحياة أو الموت ولكنك كنت تجهلين بينما كان جسدك بأسره يشعر بالحرب، يتعثر بين ثنيات واسترخاء الجسد، كم كان التقدم صعباً. لماذا، ما الذي حدث له؟ نعم، منذ تلك اللحظة، اقتحم ما لم يكن بالحسبان حياتك، ما كنت تتقنين شيئاً. بدا كل شيء أسود ومعذّباً ومرعباً. ما الذي حدث، ماذا حدث. ما كان بوسعك التفكير حتى، بل ما كنت تعرفين كيف تفكرين، ما كنتِ سوى جسد صغير وما كنت سوى إحساس. ما كان شيئاً لكنه كان مرعباً، أن نُدفع خارجاً لفضاءٍ مجهول. لم يكن هناك زمن ولا حدود ولا لغة. لم يكن هناك أجساد أخرى. ما كان هناك غيرك. أنت التي ما كنتِ شيئاً بعد، أنت ورعبك. كم كانت وحدة عميقة وحين عبر جسدك الصغير العائق الأخير صرختِ. كم كان ذلك مرعباً، لا وجود للماء في أيّ مكان ولا حدود. كل شيء مفتوح، مفتوح دون نهاية، مفتوح للأبد ومبهر. وذاك الضجيج، وضعتِ على امتدادٍ شاسع حيث لا حدود لشيء. كنتِ تشعرين أن كل شيء بات ممكناً، يمكن أن يصيبك كل شيء، قد يقع كل شيء وقد تقعين. نعم، بدء الحياة، كان كذلك: أن شعرتِ بكل جسدك أنك قد تهوين. إذن ومنذ اللحظات الأولى، كنت عرضة لكل شيء لا محالة، طاولة الكوي التي وقعت على رأسكِ وأنتِ في الثالثة من العمر ففتحت جمجمتك، تلك الأمراض في الطفولة، وقوعك عن المُهر وكل ما لم يحدث ولكن كانت قد تحدث. بماذا أعاقك، ما ضرره. أتذكرين حين كنتِ تقودين على طريقٍ عام وما انتبهتِ أن عليكِ التوقف. وبالمقابل، تتجه نحوك سيارة بسرعةٍ هائلةٍ. لحسن

الحظ أنه زمّر وكرر التزمير، في اللحظة الأخيرة أدركت ففرملتِ وإلا لكانت ضربةً شديدة. لكن غالباً ما تخطر لك تلك اللحظة، وما كان ضررها. كل تلك اللحظات الأخرى التي ما أدركتِ فيها ما قد يحدث، لا ضرر أنك ما عبرت للطرف الآخر من الحبلِ الوهن، ما الذي حافظ على حياتك حتى الآن ولو التويت أحياناً أو وقعتِ؟ كيف بقيتِ إذن على قيد الحياة؟

أجل، اقتحم ما لم يكن بالحسبان حياتك منذ اليوم الأول. أليس هذا، من جهةٍ أخرى، هو تعريف الحياة، تلك التجربة الغريبة بالبقاء هنا، بالتحرك هنا، ضمن حدود الجسد، بالطبع لن يُصاب بأيّ مكروه من هو في العدم، من لم يأتِ بعد إلى هذا العالم. كما لن يُصاب بمكروه من لم يعد في هذا العالم، من استراح للأبد. أجل، الطارئ مادة الأحياء. لماذا أذكرها بهذه القوة اليوم، وكأننا نسيناها بعمق. كأننا ما عدنا نعرف أن غداً وبكل الأحوال قد لا يحمل الغد شيئاً أو ربما يقع حجر أو نسقط أو يتوقف القلب، ماذا أعرف أيضاً، ربما يتوقف كل شيء؟ لا نعرف وجه من سيأخذنا يوماً، من سيحملنا للطرف الآخر. لا يمكننا أن نتهيأ لما لا اسم له، لما لن يحمل اسماً حتى النهاية. ما غير رصاص الإرهابيين شيئاً، لن نهبهم هذه القدرة بتحويل مادة حياتنا حتى. ما أثبت رصاص الإرهابيين سوى شيء واحد العدم وحياة من أردوا برصاصهم المفقودة، أثبت رصاصهم موت الآخر وموتهم ولكنهم ما قالوا شيئاً للأحياء وما أثبتوا شيئاً. إنهم لا يفقهون شيئاً بعالم الأحياء. هل نحن على وشك الاستيقاظ؟ ما كانت يقظة جيدة ولم تكن لطيفةً ولا رخوة بل عنيفةً. استيقظنا قفزاً، نتصبب عرقاً وعلى أهبة الاستعداد للاندفاع، أين وكيف ولماذا نندفع، لا نعرف بعد دون شك ولكننا استيقظنا أخيراً وما عاد هناك متسعٌ من

الوقت لنضيعه هباءً. يخترقنا تدفق الحياة ويضرب داخلنا وكم كان مؤلماً أن نشعر به يضرب مجدداً بهذه القوة بينما كنا ولوقتٍ طويل متراخين. ضرب في أعضائنا وضرب تحت جلدنا، بل ضرب تحت صدوغنا. ضرب فأوجب علينا ألا نعود للنوم ونشرع بالتحرك فوراً. الحركة نفسها أملاها علينا اكتشاف ما كنا قد نسيناه: الطارئ في قلب الحياة. فوراً أو غداً أو خلال أسابيع، ما كنا نعرفه بعد وما كنا لنعرفه أبداً، لكننا تعرفنا عليه مجدداً، أليس هذا هو الجوهر بالعمق؟ سنشرع بالتحرك ونحن نعلم أن هذه الحركة وحيويتها واتجاهها وتجديدها لا ينفصل عن هذه المعلومة: في كل وقت، الحياة، حياتنا نحن، يمكن أن تتوقف. هي الأكبر قيمة مما نملك، لا شيء، لا علم ولا مال ولا امتياز يمكنه أن يحميها ويجعلها أبدية. بل هي الشيء الوحيد ذو قيمة حقيقية، ما يهم كليّاً وما يهم بشكل مطلق. بتنا نعرف ذلك أكثر من أيّ وقتٍ مضى. ألا يكفي أن نتأمل لحظة بمئة وثلاثين شابّاً وفتاة الذين فقدوا حياتهم وكانوا قبل ذلك بدقيقة لا يعرفون وبعد دقيقة فات الأوان، لقد فقدوها. كلهم معاً فقدوها. يكفي أن نتفكر بأمرهم. هذا التفكير وهذه المعرفة تسبب الدوار، بل لعله يفقدك صوابك فلا يمكن استيعابه بفكرة ويمكنه أن يسبب انفجاراً في الأفكار، بل يسبب انفجار الجدران التي اعتادت أفكارك أن تسير بينها. حقيقة إنه أمرٌ محالٌ تخيله، يفوق ما يمكن أن يستوعبه العقل. أمرٌ يدعو للبكاء ويدفع للسقوط، ولكن لا يجب السقوط، علينا النهوض أكثر من أيّ وقتٍ مضى والتحرك والرقص. يجب أن نكون على قيد الحياة أكثر من أيّ وقتٍ مضى وأن نبقى يقظين. ماذا نفعل بحياتنا كل بمفرده وكلنا معاً، ماذا نفعل بما يتناسب مع عظمة هذه الهبة المنفردة والتي لا تعوض، التي نملكها وسنفقدها يوماً ما؟

رغم ذلك، كان الخوف جاثماً هنا ويحوم حولنا، يقطع أنفاسي وأفكاري حين أفكر أحياناً وأنا في المترو عمّا قد يحدث لو ضربت هجمةٌ ما، تستحوذ عليَّ الفكرة فجأة دون سبب بينما أسير في الشارع وتهاجمني ذكرى ما حدث هناك بالقرب من منزلي في أحد الأيام حيث كنت أنعم بالدفء في منزلي مع أهلي بانتظار أن يطل الصباح لأستقل القطار نحو أويوناكس،كأنني استيقظت مجدداً واستيقظت أيضاً ولن ينتهي الاستيقاظ، مما يتسبب لي بالدوار وأنا أفكر بأبنائي ويكاد عقلي يثير جنوني بتخيل أحداث لا وجود لها ولكنها أحداث قد تحدث. صارعت لطرد صور الخيال وطرد الوحوش التي ما وجدت بعد ولعلها في رأسي فقط، أجل يقيدني الخوف ويجعل حدود الواقع أكثر نفوذية ويقضمها بساديةٍ ويقرضها ويرققها ليخلق وحوشاً، ما عدنا نعرف إن كانوا وحوشاً أو واقعاً. كان الخوف جاثماً أيضاً تلك الليلة التي استيقظت فيها منتفضةً جراء منامٍ يطرق فيه رجالٌ بابي، يقرعون بعنف، يقرعون ثم يدخلون فانتصبت في سريري وخطر لي بصمت ما تعلمته في كتب التاريخ، منذ زمنٍ طويل، تعلمنا جميعاً وقرأنا في الصحف عنٍ تلك الحقبة التي ولّد الحقد على الآخر والخوف منه مذابح محالٌ تخيلها وحلولاً جذرية وإبادات جماعية. أذكر أنني حين قرأت عن هذا، حين قرأت تلك الكلمات في الصحف والكتب، راودني شعور أن كل هذا بعيدٌ عني، بعيدٌ جدّاً عني وعن حاضري، بعيد عن جسدي. كل شيء يشبه حكاية تتحدث عن عالمٍ آخر، عالم ما عاد له وجود، شيء يتعلق بالماضي، تم إقفاله، إقفاله بإحكام ولن أعرفه أبداً. بينما أجلس بسكون الليل بجانب الرجل الذي أحب وهو نائم قرير العين وأتساءل كيف لذلك أن يعود، كيف ينتهي المطاف بعودة كل ذلك وعودته مراراً وتكراراً. أتساءل كيف يقتحم حياتي

في وقتٍ قصيرٍ لطالما بدا لي فوق الخيال ومحالٌ أن أعيشه في حياتي وفي بلدي وفي أوروبتي، كيف وصلنا إلى هذا الحد. كيف يخطفنا في كل مرة شيءٌ من التاريخ يتجاوزنا نحن شخصيّاً دون شك لأن الجماعة تبدو في هبل وتنزلق كليّاً، فاقدة منطقها مما يجر كائناتٍ بشرية ضاربين بإنسانيتهم عرض الحائط. نعم أتساءل في أيّ حلقةٍ ثورية من التاريخ ندور الآن، لست أدري، لا أفهم، كلا، لا أفهم.

إذن، حين تعاظم الخوف وولد الكثير من الوحوش والكثير من الكوابيس، فكرتُ بالمنزل الأبيض وبجسده الحامي وشذاه العذب والبحر الذي يلوح هناك أزرق اللون، شديد الزرقة. هل هناك بحرٌ في العالم بأسره يفوقه زرقة ويمدنا بمشاعر الأبدية مثله؟ هذا البحر الذي لطالما سبحت فيه منذ طفولتي، أدور وأدور بجسدي في الماء وأحياناً أكف عن الحركة لأكون كلوحٍ ثم أغوص مجدداً في داخله في أعماقه وأسبح بعيداً، أتوقف أحياناً لألمح أشجار الصنوبر والشاطئ فيبث فيَّ الفرح في كل مرة. أجل خطر لي البيت مجدداً وجبينه الأفق الأزرق. بذلت قصارى جهدي ليبدو لي فكريّاً جاثماً على التل وأرى بوابته البيضاء تفتح على ممر الحصى المؤدي إلى شجيرات الورد وتلوح أشجار السرو والتوت والعشب المجذوذ، وتبدو الجدران البيض وقاعة الطابق السفلي السابحة بالنور وسماء المساء الملتهبة. أتخيل نفسي متمددة على البلاط الحارق وجسدي ساخن مهزوم ومطحون بأشعة الشمس. يخطر لي أحياناً حتى صوت صرصار الليل يمتزج ككل واحد بصدى يداعب فؤادي مع صوت أمي وجدتي وجدي فأشعر أني استعدت أنفاسي وحدود جسدي المهدد بالخوف، فتبتعد الوحوش لبرهةٍ وأستعيد إحساسي بالحبور ويخرس كل ما يزمجر من حولي. أستعيد حضوري في هذا العالم لأدرك أن منزل سيبيل أكثر

اتساعاً من قطعته من الفراغ. الملاذ الذي يشكله لي يمتد بعيداً عن جدرانه البيض وطالما يشكل جزءاً منه ممتداً بعيداً عنه، شكل لي ملاذاً داخليّاً قادراً على استقبالي حتى وأنا موجودة هنا في باريس، في مدينةٍ باتت مهددة بالهجمات في كل لحظة والمنزل هناك، جاثم على شط البحر بسكون. نعم، تمتد أذرع منزلي البيض إليّ لتعانقني وتبث الطمأنينة في نفسي، هكذا اكتشفت ولأول مرة في حياتي أن منزلي ما كان مجرد مكان أحببته أكثر من كل شيء، بل فضاء ذهنيّ أتمكن فيه أن أستحضر ذاكرتي وتاريخي وموتاي وأحيائي، حاضري وماضيّ لأنعم بكل حرية باللجوء إليه.

ولكن ماذا سيحدث فيما بعد حين لا يعود المنزل بحوزتنا؟ أتساءل أحياناً. هل يمكنني أن ألوذ به فكريّاً؟ وأحلم به أحياناً؟ وهل سأكون على ما يرام في حلمي كما كنت دائماً؟ هل سأبكي حين أستيقظ كما حدث لي في الأشهر التي تلت وفاة والدتي، حيث كنت أحلم بها ليلاً، نبقى سويّاً أنا وهي، يمكنني أن أكلمها وأراها وألمسها وأسمع قهقهاتها إلى أن أستيقظ وأكتشف مجدداً أنها قد توفيت فأنهار بعنفٍ مجدداً. أجل، ماذا سيحل فيما بعد، حين لن يكون المنزل لنا؟ وتلك المشاعر بالانهيار الداخلي التي عهدتها وعرفت جوابها.

حل شهر كانون الأول حاملاً معه أوائل الرياح المتجمدة حين نفتح النوافذ صباحاً برفقة تلك الرائحة والصمت اللذين يلازمان البرد، حتى في المدينة، الأشجار عارية أمام نافذتي والصقيع يغطي زجاج السيارات والحدائق الراقدة. بينما بدأ صغيري بالجلوس وسيصبح عمره ثمانية أشهر يُقال إنه في هذا العمر يبدأ الطفل بفهم الآخر، بدءاً بوالدته. يفهم الطفل في هذا العمر أنه منفصل جذريّاً عن والدته ولا يشكل جزءاً من جسد والدته ولن يشكل جزءاً منه أبداً. هناك هو وهناك

والدته، هناك ذاك الجسد الكبير وذاك الصوت وتلك الحرارة وهناك هو وبينهما يفصل شيء ما للأبد ويبقي كلّ منهما في جسده الخاص وقدره الخاص وإن العناق مهما كان قويّاً وعذباً لن يغير شيئاً. لن نكون الآخر أبداً وسنبقى دائماً نحن. إنه على وشك أن يدرك بشكل قطعي، أقول في سرّي أحياناً وأنا أراقبه يمد ذراعيه الصغيرتين نحوي، إنه يدرك أنه وحيد، وحيد وسيبقى وحيداً، أجل هناك آخرون من حوله يلمسونه ويهدهدون له ويلاعبونه ويغيرون له ويغذونه، لكنه يدرك من الآن فصاعداً أنه جذريّاً وأبداً لن يكون أيّ شيء آخر سوى نفسه، لا والدته ولا والده ولا أخواته ولا العالم المحيط به ولا نباتات الصالون ولا العصافير ولا السماء ولا الأشجار ولا أوراق الشجرة الخضراء اللامعة التي يراها كل يوم بشغف. لن يصبح يوماً شيئاً من كل هذا مهما كان متراميًا من حوله وخلاباً ومدوخاً. سيكون هو نفسه بكل بساطة، كائناً صغيراً ضمن جسدٍ صغير ما اختاره ويستكشفه أسبوعاً تلو الآخر. في هذه اللحظة، إنها قدماه ويسعى كدمية كولبيتو دون كلل أو ملل أن يحملها إلى فمه ليمصها ويتعرف عليها. سيظل هكذا حتى النهاية، هو وكل منا، سيكون وحيداً حتى في الحب الأكثر قوة وفي المرض حتى الموت سيظل وحيداً. إننا وحيدون دائماً.

هكذا إذن، سندخل شتاءً جديداً وعما قريب سيمرّ عام على الهجمات الأولى. منذ يوم الأربعاء من شهر كانون الثاني حين علت صفارات الإنذار معلنة الهروب بالسرعة القصوى في شارع منزلي، خلنا أن حريقاً هائلاً اندلع بالقرب من منزلي، إلى أن علمت عبر شبكات التواصل الاجتماعي أن رجلين ينادیان باسم الله أبادا كل الفريق الحاضر يوم ذاك في شارلي إيبدو، في حين إن شرطيةً شابة في العشرين من العمر قُتلت بدورها في شارع مونتروج على يد رجلٍ

أخذ كرهينة عدة أشخاصٍ جاؤوا ليشتروا حوائجهم من هايبر ماركت كاشيه في باب فانسن، أجهز على بعضهم هكذا، عشوائيّاً، أولئك الذين وجدوا في حقل نظره في اللحظة التي قرر أن يشهر سلاحه ويطلق. وهكذا، ها قد مرّ عام على الساعات التي اخترق ما لا اسم له حياتنا وبدأت صورٌ سكنتنا تقتحم قلوبنا لأسابيع وأسابيع. ما كان ذلك سوى البداية، قطعاً ما كان سوى البداية. حُصدت حياة مئة وثلاثين شخصاً يوم الجمعة الثالث عشر من تشرين الثاني. مئة وثلاثين وجهاً، مئة وثلاثين صوتاً. يا بني الصغير، لمن غيرك ألتفت في هذا الصباح حيث يعم البرد العالم وحيث تدنس شيءٌ ما، تدنس دون رجعة. أمس، وأنا في المترو مررت بمحطة سيتي ولمحت على الرصيف المقابل، عشرات من الجنود مدججين بالسلاح واقفين على الرصيف، مجرد رؤيتهم في قلب باريس، في شوارعنا الأكثر بهاءً، في سوق «فلور» وفي الممرات حيث اعتدت أن أتنزه لأنني أجد المكان شاعرياً وأبدياً. في الأسفل ذاك الحي العتيق الذي يروي تاريخنا العريق. أجل، اغرورقت عيناي بالدموع عفوياً لدى رؤية هؤلاء الرجال بالبزة العسكرية والسلاح بقبضتهم، كأن كل شيء قيل فجأة، وانتقلنا من الشاعرية إلى الواقع، *آه يا سعادتي، سعادتي بعالمٍ أنت فيه دفين*، أشحت بسرعة ناظري وحدقت داخل المقطورة لأنَّ رؤية هؤلاء الرجال المدججين تجعلني أرغب بالبكاء، فالتقت عيناي بعيني شابةٍ تجلس مقابلي، قرأت في نظراتها الرعب والأسى ذاته، لذلك ابتسمت لها وتبادلنا النظرات دون أن ننبس بحرف متقاسمتين الأسى والهلع ذاته. كنت أعلم في هذه اللحظة أن تلك المرأة التي لا أعرف عنها أيّ شيء والتي صادفتها جالسةً مقابلي في المترو وتشعر بالصاعقة المرعبة ذاتها أنها تفكر بكل الحيوات التي حُصدت منذ

عدة أيام، كما كنت أعرف أنها تكرر في سرها: ها نحن هنا ووصلنا إلى هنا، إلى أولئك الرجال الواقفين وهم يوجهون أسلحتهم نحونا على رصيف محطة سيتي. نعم، لمن غيرك ألتفت هذا الصباح بينما الحقيقة راسخةٌ هنا. لعلنا استيقظنا بصوت منبهٍ، لكن المنبه كان صعباً، ما نراه ليس جميلاً، ما نراه ليس فرحاً، ما نراه قد يشدنا نحو اليأس. تساءلت: ترى ماذا سنفعل بأحلامنا، ماذا سنفعل بحياتنا. منذ الثالث عشر من تشرين الثاني وأنا أتعثر بمزيدٍ من العنف حول هذا التساؤل وما زلت متشبثة دون أن أجد الجواب، أخبط رأسي ولا أجد الجواب ومع ذلك، لا أريد أن أقول لك أن لا جواب، لا يمكنني أن أقول ذلك لك أنت الذي لا تعرف شيئاً بعد في هذا العالم وتبتسم لي بسكينةٍ لأنني أعرف تماماً في أعماق طفولتي أن حياةً بلا حلم لا جوهر لها، حياة بلا حلم كبلدٍ بلا نور. أراك، أنظر إليك يا ابني الصغير، هذا الصباح، وأرى النور يشع من وجهك حين تراقب يديك لدقائق طويلة وتلفها ببطء في وضح النهار دون كللٍ أو مللٍ. بينما أتعثر في رأسي مرة أخرى ككل صباح لأجد جواباً عن تساؤلي، لتخطر ببالي فكرة، ربما عليَّ أن أفعل مثلك، ربما ببساطتك يجب أن أتعلم كل شيء من البداية وأفعل ما تفعل بهذا الحماس كل يوم منذ أن جئت إلى العالم، أرى مثلك أوراق الشجر الخضراء بشغف، خضراء لدرجةٍ براقةٍ والسماء تتغير دون نهاية. الأوراق التي تتأرجح تحت الرياح لتخلق تناوباً بين الظل والنور ويقسو التراب مشكلاً كرات صغيرة في الحديقة الراقدة وهالة القمر مساءً والعصافير تحلق في السماء. وجوهنا وأيدينا وأجسادنا تراك وأنت تأخذ مكانك في العالم المحيط، تلك النظرة التي تكمل الأيام والليالي تمنحني رغبةً عارمةً بأن أحاكي ما تقوم بالزخم نفسه والدهشة نفسها. أتأمل أوراق

الأشجار كأنها المرة الأولى، أتأمل السماء بتغيرها اللامنتهي والأوراق تتأرجح في النور وأشتم دراقةً كأنها المرة الأولى التي أعرف رائحتها، أمصها بكل جسدي. أجل إنك تمنحني رغبة مفاجئة وفظيعة بأن أبدأ كل شيء من جديد وأعيد اكتشاف كل شيء بنظرة لا تملُّ من شيء، نظرة جديدة، نظرة تغوص في الأعماق وتمتص وتلج بكل ما تحط عليه. نظرة تستمتع مثلك بالاختلاف. أنا أعلم أن خلال عدة أشهر أو عدة سنوات، يوماً ما أجهل تاريخه، لن أتمكن من رؤية أيّ شيء من كل هذا. إذن سأرى عن كثب، سأرى عن قرب أكثر الرجال المدججين والواقفين على رصيف محطة سيتي، عن كثب وعن بعد بآنٍ واحد. أرى الأوراق والسماء وأستمتع أكثر من ذي قبل بمناظر العالم، أستمتع أكثر من أيّ وقتٍ مضى بلا تناهٍ بالحياة وتعدديتها وأشكالها المتغيرة والمتجددة باستمرار، ربما أجد هكذا في نظرتي ما أقرأ في نظرتك وخلت أنني فقدته منذ عشرة أشهر الانبهار وقدرة اللحظة الحاضرة وأشعر بما يأتيني من العالم، ما يأتي متغلغلاً فيّ ويجري في دمي وتلمسني تلك الروعة أولاً ويلويني قبل أن تغزوني الدموع ويسكنني الخوف.

ربما سيقولون لي، يا صغيري، إن كل هذا تافه. لكن فلنفتح عيوننا قليلاً، سأسمع القارب يجري ويجري وأنت تروي لنا عن ورقة الشجرة الخضراء بينما سأجيب أن هذا بالضبط ما أفعل. أفتح عيني، ما وددت قط أن أفتحهما هكذا لأنني حين أراك، أرى السعادة في وجهك وفي نظرتك وفي روحك. أرى يديك وذراعيك وجسدك المأخوذ بأسره بهذا الزخم. أذكر أن كل شيء بدأ من هنا، بنظرتنا القادرة لأنها التقطت العالم وشهرته وهكذا سنرتعش مجدداً ونتحرك نحو الحياة ونحو أحلامنا ونحو السعادة.

لا يحل الكتاب شيئاً بالطبع. سنبيع البيت خلال عدة أشهر، ولن أتمكن من فتح البوابة الصغيرة البيضاء ولن تهاجمني الروائح المعتادة فأشعر فوراً أني في منزلي مرتبطة بماضيّ، مرتبطة بأصوات حاضرة وغائبة، فأثبت أنني أرتبط بتاريخٍ بدأ قبل مجيئي إلى العالم وسيستمر دوني وأنني كشجرةٍ هنا تضرب جذوري وهنا أرقد، على هذه الأرض على شاطئ البحر العبق بشذا العطور. لن أتمكن من اصطحاب من أحب وأشعر بسعادة الإحساس بالسلام في هذا المكان معهم فيجتاحونه هم أيضاً وأراهم كل يوم يهجرونه رويداً رويداً. كنت أعرف ذلك قطعاً ويكفيني أن أغمض عيني وأتخيل نفسي دون منزل وألفظ تلك الكلمات: ما عاد المنزل لنا، انتهى الأمر، لن نذهب أبداً إلى هناك وكأنني أجتث قطعةً من جسدي، تاركةً هناك ما ينبض بالحياة وقطعة مني ومن تاريخي وذاكرتي لينهار شيء مني بهدوء وتنقطع أنفاسي ويراودني إحساس أنني فقدت الأرض المزرعة ويبدو لي أن جسدي يعوم في الفراغ وكأنه فقد جزءاً من هيكله العظمي، جزءاً يضمن جلوسه واستقراره. أعرف أن هذا ليس مرئيّاً وسأتظاهر وأخفي كأنني أنتصب جيداً وقدماي على الأرض، كأنني أستمتع باكتشاف أماكن جديدة وروائح جديدة وآفاق جديدة كما قال لي البعض فالتزمت الصمت كرد. سيبقى في داخلي شيءٌ من هذا الضياع للأبد، شيءٌ ما لن يعود أبداً. سيبقى في داخلي جسدٌ مبتور. يقول المثل الشعبي إن الحياة تزداد ثقلاً يوماً بعد يوم لكنني أتساءل أليس العكس ما يحدث. أتساءل، إذا ما حسبنا خساراتنا، كل خساراتنا على طول الحياة فإن وزننا يتناقص لأن الخسارة ما هي سوى اقتلاع، حفرة في القلب، حفرة في الجسد. ما وزن هذه الحفر، ماذا تمثل هذه الفراغات في كثافة الحياة؟ سنبيع المنزل مع قطعةٍ مني. سنفرغه في نهاية الصيف

قطعةً قطعة، غرضاً غرضاً، أثراً تلو الأثر. ماذا سيبقى إذن في النهاية سوى الصمت، سنذهب إذن على رؤوس الأصابع، سنغلق للمرة الأخيرة البوابة البيضاء الصغيرة وسينتهي كل شيء. لن يحل الكتاب شيئاً، خلال عدة أسابيع وعدة أشهر، ستحل هجماتٌ أخرى هنا أو هناك وستحصد حيوات أخرى، ستحصد وجوهاً وأجساداً وأصواتاً. كلٌ منهم منفرد وغائبٌ للأبد. ستعود مجدداً الانفجارات والهلع والاضطراب. سنشعر مجدداً أن جسدنا مصاب ولو أن من سقط ليس نحن. سنشعر مجدداً أن عنف العالم اقتحمنا ويرغب أن ينقل لنا عدوى دناسته ليتركنا معدمين ومذهولين، يتملكنا الأسى والخوف. تصبح دوريات الجيش عديدة في شوارعنا ومحطاتنا وعلى أرصفة المترو. أجل لن يغير الكتاب شيئاً. أشعر أننا، أنا ومن حولي، قد جردنا من مشاعر السكينة والوحدة دون رجعة ولن أعثر عليها مجدداً.

رغم ذلك، يبدو لي هذا الصباح بينما أخط السطور الأخيرة أن شيئاً ما قد مرَّ وتحول داخلي كأنني قمت برحلة طويلة ومؤلمة ومستحيلة. أتهيأ لوضع قدمي على ضفةٍ جديدة، ضفةٍ كنت أجهلها قبل أن أشرع بكتابة هذا النص. ضفة ما خلت يوماً أن أطأها وأنا قادرة. ضفة ليس فيها لا منزل أبيض ولا شذا الميموزا، ضفة لا ملجأ ممكناً فيها، ضفة يمكن لجنون البشر أن يدمرها بلحظة. أظن أنني ما عدت أرغب بأن أعود أدراجي ولا أن أتوسد الأرض. سأضع أوراقي وكلماتي. سأطأ أرضاً جديدةً ما اخترتها وتنتظرني في نهاية كتابي، في هذه اللحظة من حياتي. سأطأ الأرض بحزم دون أن أرتجف. أجل، سأتحرك رغم شعوري بالعري دون حماية، رغم أن شيئاً ما يترنح داخلي أبداً ويخترقني في هذه اللحظة بالذات، كظلٍّ لخيالاتٍ ما انمحت. كل هذا الغياب وهذه الأجساد التي سقطت والتي اكتشفت وجوهها في

الصحف، أدنو من صورهم المرتجفة وكأنني أحملهم معي وأعانقهم لأول وآخر مرة. بينما أطأ تلك الأرض يرن داخلي صوت جدي: *«حين لا تسير الأمور على ما يرام في فرنسا سنذهب إلى أستراليا.»* ترافقني هذه الكلمات بزخمها ورغبتها بالحياة: حين لا *تسير الأمور على ما يرام في فرنسا سنذهب إلى أستراليا،* هكذا إذن فقدتُ كل شيء، قريباً لن يعود المنزل لنا، لكن الأصوات ستبقى وسأحملها معي جميعها، صوت والدتي وجدتي وجدي وهزيز ريح الشمال ونقيق الضفادع وحفيف أجنحة طيور الترغل تأتي لتشرب وتحلق في السماء وهدير الأمواج بطيئاً، بطيئاً جداً. كل تلك الأصوات التي ما فارقتني أبداً منذ الطفولة. فقدتُ رائحة العسل في المنزل لأنني أعرف أن الروائح تتلاشى ولا تعود أبداً ولكن يمكنني حمل الأصوات. سأحط على الشاطئ وفي داخلي يحترق شيء ما، شيءٌ يبدو بمنتهى الصغر أمام هذا الشاطئ العاري والمترامي الأطراف والشديد والذي يلوح بتهديده أمام عيني، لكن، هذا الصباح، بدا لي هائلاً وقوياً، أقوى من خوفي وأقوى من التهديد. سأتحرك وفي داخلي تلك الرغبة المجنونة بأن أفتح عيني، أجحظ عيني وأغوص بما أرى، في كل ما أرى، في كل ما ينتصب أمام عيني، جسد ابني الصغير الدافئ ملتصقاً بي. هكذا إذن يمتد الخلق، نتمدد عبر الزمن. ما يبدو صغيراً يصبح واسعاً وعميقاً، ما يبدو موجزاً سيمتد. ربما سأفهم بعد أكثر من عشرين عاماً ما كنت أبحث عنه في السادسة عشرة من العمر وأفهم الخط العمودي ونغرقه بأنظارنا وبالهجران. تساءلت هذا الصباح، بينما أبقى هنا واقفةً على هذا الشط الجديد، قدماي مزروعتان في الأرض ومنزلي خلفي للأبد، أليس هذا هو الشعور بالفرح الداخلي الذي بحثت عنه بكل ما أوتيت من قوة منذ ليلة السابع من كانون الثاني.

ذكرياتنا وتاريخنا جذورٌ ضربت في أرضنا، في ذاكرتنا. كيف نقتلع جذوراً شبكتنا مع أجدادنا لنزرعها في أرضٍ أخرى، في ذاكرةٍ أخرى؟ هل المجهول يلائم جذورنا أم سنشهد على تلاشيها؟ تساؤلاتٌ نقف حائرين أمامها ترغمنا على التأمل بكنه التاريخ وجوهر الإنسان رغم أولئك الذين يلوون ذراع الإنسانية ويزفون الموت لتكبيل الحريات وزج الحياة خلف قضبان الخوف. ليس الإرهاب سياسةً تبيح للدول التلاعب بالشعوب، بالإنسان الذي توسد حضن الوطن وغفا



بأمانه ليصبح اللجوء غايته، وهل يمكن أن ترادف مفردة اللجوء كلمة الوطن؟ هل ستنبض الحياة في لاجئٍ ترك خلفه الوطن، ترك نفسه في الوطن.

اللجوء... كلمةٌ كثر تداولها. البنت الحرام لعهر الإرهاب والسياسة. كلمة باتت تهددنا مهما خلنا أن شتان ما بيننا، ستدنو على حين غرة وتنتشل الوطن بمخالب مسمومة وتركلك على أرصفة اللجوء الذليلة بانتظار أن يتصدقوا بالوطن البديل، والبديل لن يحل يوماً محل الأصيل وستلعب الريح فينا أبداً، سينخر برد الحنين عظامنا وتشيب أحلامنا التي دهسها الرعب في شوارع الوطن. حياةٌ بلا أحلام لا معنى لها.

أمي وأرضي... دثروني بالأمان وأعزفوا على وتر الإنسان. لن ننهار أمام من مسّه جنون القتل، لن يكتم أنفاس الحياة وسنستمر في أحداق صغارنا الذين يهللون للحياة ومثلهم سنتعرى من ثقافة الرعب هذه ونواجه الحياة بقلبٍ صبٍّ...

الأم والأرض والولد... إيقاعٌ أزليّ تتمايل على زنوده خصور الحياة الأبدية وينفخ في قصبات الأمل نغماً يلوي الرعب ويتحدى الأسى.

رحلة تزخم بالعواطف الجياشة سنخوض غمارها في رواية «وفي النهاية الصمت».


ISBN 978-2843091292
9 782843 091292